جنرال غوردون

تاريخ حياته . مغامراته . مصرعه

يلقى ضوءاً على خبايا السياسة البريطانية فى إخلاء السودان
ثم إعادة فتحه — وأسباب نقض عهود الجلاء عن مصر

أحمد صادق حمدى
المراقب المساعد
للبحوث الفنية بوزارة المعارف

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة المترجم

إن قصة غوردون هذه ـ أول ماتكون ـ دراسة فى الطبيعة البشرية وتحليل لنزوات نفس طموحة تردت فى طموحها ومطامعها واحترقت كما تحترق الفراشة بالنار التى أغرتها بضوئها وغمرتها بسنا نورها حتى سلبتها عقلها فجعلت ترقص رقصة الموت حتى التهمتها ألسنة اللهب : ذلك ماهدف إليه الكاتب فى تحليل شخصية غوردون . فظل ينقض عظمته الخوافى منها والقوادم حتى لم يبق منها ما يستحق به أن يدون فى سجل الخالدين . لقد اعترضت حقبة عريضة من الدهر بينه وبين عصرنا لم تستطع شهرته التى أقامها لنفسه أن تصمد لامتحان الزمن أو تصاول أقلام النقاد والمؤرخين المنصفين ورغم ذلك كله فما يزال يعيش فى ذاكرة الأمة البريطانية مثلا للبطولة وعنوانا للرجل الخير المتدين ونموذجا للتضحية بالنفس فى سبيل المثل العليا ، ذلك لأن صفات المخاطرة والجرأة والتدين التى اتصف بها حببته الى قلب

كل مواطنيه ، هذا الى أن الظروف التى لاقى فيها مصرعه اكسبته عطف جميع القلوب فى انجلترا بل وعطف جميع الشعوب الأوروبية جمعاء .

وقد أبرز الكاتب نواحى شذوذه النفسانى وتقلب أهوائه وخبله العقلى وفظاظة طبعه وتشعب مطامعه إبرازا هدم به جانب العظمة والتواضع الذى تتصف به عادة عظام النفوس ثم انتهى إلى عقيدته الدينية فجعل يستقصى أسبابها ويردها إلى منابتها ويسايرها فى تطورها وتقلبها حتى انتهى به المطاف إلى تقرير استغراق غوردون فى التهوس الدينى والتعصب ، كما أخذ عليه ضيق أفقه وتفاهة تفكيره وتجرده من الخبرة والتجربة ورد كل ذلك الى امعانه فى دراسة الكتاب المقدس والتواليف الدينية وتركه كل ماعدا ذلك حتى انقطع عن دنياه انقطاعا باتا . ثم أورد من الشواهد والأقوال التى فاه بها فى ساعات يأسه وعجزه مايدل على الجحود والكفران بالآء ربه . فعراه حتى عن هذه العقيدة وشهره للملأ عريان مجردا من الايمان وأثبت أن إيمانه لم يكن إلا زيفا وطلاء ضعيفا وإنما أعتقد بالله وبالقضاء والقدر عندما وافقت

هذه العقيدة هوى فى نفسه والتأمت مع طبيعة سداها ولحمتها الطموح إلى الشهرة التى كانت الدافع الخفى التلقائى فى كل المغامرات والأعمال التى انساق إليها . ولما لم يجد المجال ممهدا أمامه فى وطنه ظل يتصيد هنا وهناك ميدانا أجنبيا وجوا شرقيا يستطيع فيه أن يشبع نزواته الملحه .

ولم يترك له بعد ذلك الا صفة الأقدام والجرأة ذلك لانهما صفتان لامناص لكل مغامر عنهما فهما فى دمه وطبعه لازمتان له لزوم الغريزة والحيوان وحتى فى ذلك لم يزج إليه الاطراء خالصا وإنما مزجه بصفة الخرق وقصر البصيرة » وهكذا ظل الكاتب يتأثره من انفعال إلى انفعال ومن أمل إلى خيبة ومن خيبة إلى أمل ومن فشل إلى نجاح ومن نجاح إلى فشل حتى أورده حتفه . ووصف مشاعره واحاسيسه قبيل مقتله وصفا لا يدع مجالا للشك فى أنه لم يكن يدرك مصيره تمام الإدراك بل وصف بلبلة أفكاره وما كان يدور بخلده من الأمل فى النجاة والسلامة .

إن تاريخ العصر الفكتورى فى انجلترا تاريخ عجيب لا من حيث إنشاء الامبراطورية واتساع رقعة المستعمرات وبحار الدماء

التى أريقت فى سبيلها والأرواح التى أزهقت تحقيقا لاطماع أرباب رءوس الأموال والارستقراطية البريطانية تحت ستار الوطنية ولا من حيث تكاثر الطبقة الوسطى حتى ضاقت بها سبل العيش ومن انفساح المجال للمغامرة والمخاطرة والشهرة فى حروب المستعمرات وإنما من حيث الطابع الذى اتسم به المجتمع البريطانى الذى عاش طوال حكم الملكة فيكتوريا زهاء نصف قرن من الزمان طغت فيه تقاليد من المحافظة والتزمت وإظهار التدين والصلاح والتباهى بالشهرة فى حب الانسانية وفعل الخير وألوان من النفاق الاجتماعى حدت من حرية المجتمع وقصت من طبيعته فبدا جافا فى طبعه قاسيا فى حكمه قاضيا القضاء المبرم على كل من يخالف تقاليده أو يتمرد عليها وقد أخرج هذا العصر الاستعمارى المتعصب جمهرة من الرجال اشتهروا بالتقوى والتدين وعمل المكرمات حتى أصبحوا فى نظر الجمهور مثلا عليا للمحافظة على التقاليد ونموذجا لاهل العصر فاصبحت لجمعياتهم قوة فى الرأى العام تحسب الحكومة لها حسابا هم ودعاة الامبراطورية او الاستعمار ومن بين هؤلاء كان غوردون

هذا هو البطل المخبول المغامر المتفالى فى عقيدته الفظ الطبع العصبى المزاج الثائر على العالم الناقم على نفسه الذى كان يستمد وحيه من سورة الشراب وادمان الكأس . هذا هو القديس الرقيق العقيده الذى يخفى تحت مسوحه أبعد أطماع الوثنية . هذا هو الرجل الذى اختارته مصر ليكون خادما لها وأمينا على املاكها فجر عليها أشدما نزل بها من الكوارث حيا وميتا

غير أن الكاتب فى سرده لقصة غوردون ومصيره حلل عقلية رجال آخرين ونقد سلوكهم أمثال المستر غلادستون واسير افلن بيرنج واللورد جرنفيل ولورد هارنجتون ثم أبرز العوامل الخفية التى طوحت بغوردون فى ذلك المأزق والسياسة الخرقاء التى سلكها غلادستون حيال الاستعماريين من زملائه الوزراء وشرح مراوغات ذلك السياسى العتيق شرحا لايدع مجالا للشك فى أنه يتحمل وحده تبعة الأحداث التى وقعت فى عصر رياسته للوزارة البريطانية (١٨٨٠ - ١٨٨٥) من احتلال مصر ثم من إخلاء السودان .

ووصفها بأنها سياسة تخبط كان يريد بها غلادستون أن

يفوت على دعاة الأمبراطورية وغلاة المستعمرين غرضهم من فتح جديد فى أفريقيا قد يجر وراءه تبعات خشى معها أن يشتبك فى أزمات دولية مع الدول الأوروبية وخاصة فرنسا فانتهى إلى تمكينهم من إنفاذ سياستهم ثم وصف مؤامرات الاستعماريين واستغلالهم للصحافة لاستثارة الرأى العام ونجاحهم فى ضمه إلى صفوفهم أولا فى إنفاذ غوردون ثم فى إرسال حملة بحجة إنقاذه وللانتقام من المهدى ولم يُخل الرأى العام البريطانى ذى النزعة الاستعمارية من مسئولية التآمر وتبييت النية فى الاعتداء على حرية مصر وأملاكها طمعاً فى التوسع والسيطرة التى جلبت على بلادنا أشد المحن وحرمت مصر والسودان معا من حقوقهما الطبيعية فى الحياة والتمتع بحق الحرية فى اختيار السبيل الملائمة لهما فى ادارة شئونهما الداخلية والخارجية

وكل مطلع على تاريخ القرن التاسع عشر فى أوربا يعلم تمام العلم مقدار التسابق والتنافس بين الدول على الاستعمار فى أفريقيا واستغلالها المستكشفين تحت ستار الكشف الجغرافى ليكونوا طلائع للمستعمرين ثم اتفاقها بعد ذلك على أن يكون حق

الاستعمار مرتبطا بالأولية فى الاستكشاف ويكفى أن ترفع دولة رايتها على أية بقعة فيها حتى تصير لقمة سائغة وحقاً مشروعا لها فى استعمارها وهكذا تسابقت الدول المستعمرة تساندا أدى إلى استعمار القارة السوداء دون إراقة دماء على عكس ما حدث فى استعمار القارة الاسيوية . ونشأت من ذلك حالة غريبة إذ أن الدول الناشئة التى لم تشترك فى السباق للاستعمار ولم ينلها نصيب من الأسلاب دأبت على التلصص والانقضاض على أية بقعة خالية فى أفريقيا لتلحق فتات الموائد متذرعة فى ذلك بأتفه الأسباب وأوهن الحجج وكل ماحدث بين الدول المستعمرة فيها لا يعدو أن يكون أزمات سياسة وأما الحروب فنشبت بين القبائل الفطرية والدول العظمى المسلحة التى لم تخجل أن تخلق من قوادها المنتصرين رجالا عظاماً فى حروب غير متكافئة كان النصر فيها مفروضا من قبل أن تبدأ .

فلا مراء أن تخشى مصر على حياتها ومنابع نيلها من أن يتحكم فيها أجنبى فسارعت هى أيضا لتأمين كيانها بالاستيلاء على منابع النيل لا عن طمع فى الاستعمار ولكن دفاعا عن وجودها

فان الأعمال العمرانية التى قامت بها فى السودان ونشرها الأمن والحضارة فى ربوعه دليل على نزعتها الإنسانية الصرفة وحدبها على مصلحة السودانيين أنفسهم وتجردها من مساوىء الأغراض الاستعمارية. ولكن مايؤخذ عليها أنها وكلت حكم تلك الأرجاء إلى الاجانب الذين لم يراعوا مصالحها وأساء بعضهم إدارتها بل ولفتوا نظر دولهم المستعمرة إلى خيرات تلك البلاد فانقلبوا حربا على مصر وعلى كيانها ومن هؤلاء غوردون.

ولامراء أن الاحتلال البريطانى كان سببا مباشراً فى نجاح الثورة المهدية وتفاقمها إذ غل يد مصر عن إخمادها ولولا ذلك الاحتلال المشئوم لاستطاعت أن تدبر أمورها وتتغلب على مشاكلها بمفردها لو أنها تمتعت بكامل حريتها.

واستطرد الكاتب من ثورة المهدى إلى سقوط الخرطوم إلى مقتل غوردون إلى ضغط الرأى العام البريطانى على الحكومة لفتح السودان للأخذ بثأره كما كشف عن خبايا السياسة الانجليزية بين ١٨٨٢ و١٨٨٥ فى روح من التهكم اللاذع والنقد المرير لرجال السياسة البريطانية كما عرض للنصائح التى فرضوا على مصر قبولها

ويشعر القارىء بين السطور أن انتواء انجلترا إعادة فتح السودان ترتب عليه تمسكها باحتلال مصر ونقضها جميع وعود الجلاء عنها .

وأوضح الكاتب بجلاء ـ مستنداً إلى (يوميات الخرطوم) التى دونها غوردون أثناء الحصار ـ أن فريق الاستعماريين فى الوزارة البريطانية لم يقصدوا التضحية به عندما أرسلوه لإخلاء السودان ـ خلافا للاعتقاد السائد ـ وإنما هو الذى ضحى بنفسه بسبب عصيانه ومخالفته للخطة المرسومة له فأعطاهم بمقتله حجة قوية وافقت نواياهم ولم يتوقعوها فسارعوا إلى استغلالها للضغط على الحكومة لإعادة فتح للسودان وتم لهم ذلك فى عهد حكم حزب المحافظين الذى كانت سياسته استعمارية سافرة قائمة على البطش والقسر .

القصة

غوردون يغزل العالم

كان السابلة يشاهدون رجلا انجليزيا قصير القامة نحيف الجسم يحمل كتابا ضخما يتجول فى ضواحى مدينة بيت المقدس فى خطا قصيرة ونشاط باد حتى ليخيل للناظر اليه أنه أمام غلام مراهق رغم طلائع الشيب التى بيضت فوديه تطالعك منه عينان زرقاوان تلوح فيهما سذاجة الطفولة وسط وجه لوحته الشمس فأضفت عليه السمرة التى تعلو كل رحالة مرس فاذا سألته فضولى ماشأنه فى هذه الأنحاء كان يجيب بأنه يريد أن يصل إلى تفسير أربعة أمور ذكرها الكتاب المقدس - البقعة التى صلب فيها المسيح ومضارب قبائل بنيامين والتعرف على جيبيون واين تقع جنة عدن كما كانت تحدوه الرغبة فى تعرف المكان الذى رسا عليه فلك نوح بعد أن غاض ماء الطوفان والعجيب أنه كان يجزم بأنه اهتدى إلى تحقيق تلك الأمور .

كان العام ١٨٨٣ والشخص الغريب هو غوردون والكتاب الانجيل .

ووجد غوردون فى عزلته عن الناس ذلك الهدوء والسلام الذى طالما ابتغاه طوال حياته فقضى عاما كاملا على ضفاف نهر الاردن فى سكون ودعة بعيداً عن العالم ولكن لم يقدر لتلك الطمأنينة أن تدوم طويلا فقد نادته الأقدار فاستجاب لها وقذفت به مرة أخرى فى تيار الأمور الدنيوية فأيقظته من أحلامه ونزعته من تأملاته الدينية نزعا وقدرت عليه أن يرتبط مصيره بمصير الامبراطورية ومصير الشعوب وحرمته من أن يستنيم إلى حياة التفكير والتأمل والسكون وألقت به حيث قضى نحبه وسط الدماء والأشلاء والخراب الذريع .

إن الملابسات المحزنة التى احاطت بحياته وانتهت بموته لم تعد سراً بل أصبحت اليوم ملكا للعالم ومشاعا بين الناس فقد علموا كل تفاصيلها ووقفوا على دقائقها وطالما تحدثوا بها وانقسموا فى الحكم عليه بين مادح وقادح ومهما يكن الأمر فان حياة ذلك الرجل الصاخبة المضطربة صفحة تفيض بالعاطفة الانسانية

وتزخر بالمحن المؤلمة وهى فى حد ذاتها دراسة للطبيعة البشرية لا ينضب معينها تتضاءل بجانبها قيمتها السياسية والتاريخية وقضى القضاء أن تتدخل فى حياته شخصيات غريبة كأنما كان القدر يدفعها دفعا لتمثيل دورها المعقد فى تلك المأساة لتستحثها إلى نهايتها وهى أشبه ماتكون بمأساة محتومة الخاتمة على ملعب للعرائس .

ومن تكون الأمة الفذة التى تخرج أمثال هذه الشخصيات العجيبة غير الأمة الانجليزية النجيبة ؟ أمثال المستر غلادستون والسير افلن بيرنج ولورد هارنجتون والجنرال غوردون فهم سواسية فى التفكير ونقص التفكير والتحول والبطء وغرابة الأطوار والتعلق بالتقاليد حتى تشابهوا فى أحلامهم ويقظتهم فقد اجتمعت فى أخلاق هؤلاء الأربعة كل المتناقضات والأضداد التى يتميز بها تفكير الأمة الانجليزية .

لقد أعد المسرح إعدادا كاملا وأضيئت أنواره وتهيأ الممثلون للتمثيل ولكن يحسن بنا أن نقدم للمأساة قبيل أن يرتفع الستار عن لاعبيها بسرد المغامرات الأولى لبطل الرواية .

ولد شارلس جورج غوردون عام ١٨٣٣ من أب

عسكرى وأم سليلة أسرة اشتهرت بالتجارة والكلف بالسياحة وركوب البحار وعرفت عنه فى طفولته الجرأة والميل للمرح والأذى ألحقه أبوه بمدرسة ولوتش ليندمج فى سلاح المدفعية فتزعم هناك حركة عصيان على رؤسائه وأقرانه كادت تؤدى إلى فصله من المدرسة لولا أنه حول لفرقة المهندسين الملكية بعد طرده من سلاح المدفعية

ثم عين فى مدينة بمبروك ليشرف على أشغال التحصينات بها فقضى هناك فترة هانئة وفى تلك القرية وسط ذلك الهدوء بدأت ميوله الدينية فى التكون والظهور تلك الميول التى لازمته طول حياته حتى يوم مقتله بل زادت على الأيام رسوخا وذلك تحت تأثير أخته أوجستا وهى سيدة شديدة التدين عميقة الإيمان وكان لرفيقه (درو) نفس الأثر الدينى فى نفسه وهنا بدأ يشعر بأنه آثم غير طاهر النفس وأحس ذنوبه وخطاياه تثقل كاهله فلم يجد له خلاصا منها إلا أن يلجأ إلى قراءة الكتب الدينية علها يجد سبيلا للمغفرة والتكفير عن آثامه ومنذئذ تسلط على ذهنه نوع من التهوس والشكوك الدينية التى لم تفارقه أبدا وانقطع عن

قراءة أى كتاب آخر عدا الكتاب المقدس والكتب الدينية المقدسة كما تبين ذلك من رسائله لاخته أو جستا أبان تلك الفترة .

ولما نشبت حرب القرم طلب نقله إلى ميدان القتال فى بلاكلافا وكان إذ ذاك قد بلغ الحادية والعشرين من عمره فأظهر شجاعة فى الميدان استحق عليها التنويه باسمه وعندما انتهت الحرب أرسل إلى بسارابيا ليشرف على تحديد التخوم الجديدة بين روسيا وتركيا فقضى زهاء سنتين فى تلك المهمة وما كاد يقفل راجعا إلى وطنه حتى أعلنت انجلترا الحرب على الصين سنة ١٨٦٠ فأرسل غوردون مرة أخرى إلى ميدان القتال غير أن القتال انتهى قبيل وصوله ومع ذلك بقى فى الصين طوال الأربعة أعوام التالية حيث حاز شهرة وصيتا تردد صداه فى انجلترا

ورغم وقف القتال بين الصين وانجلترا إلا أن الجيش البريطانى ظل مرابطا بأرضها حتى تسدد الحكومة الصينية مبلغ الغرامة المفروضة عليها وظل غوردون طول مدة الاحتلال مشغولا بإقامة معسكر للجيش فى تينتسن وفى هذه الفترة أصابه مرض الجدرى وشفى منه وحمد الله وشكره على بلواه له وامتحانه

إياه بالمرض إذ أصبح بتلك المحنة أقرب إلى ربه فى مرضه منه فى عافيته ودعا الله أن يقبله فى عداد عباده الصالحين مسيحيا مقربا إليه مرضيا عنه .

غوردون الصيني

ومن العجيب أن تتكاتف الظروف لتفسح الطريق لغوردون للاندفاع فى أولى مغامراته وقد بدأت تلك الظروف عام ١٨٣٧ أى قبل مجيء غوردون إلى الصين بنيف وعشرين عاما .

حدث فى ذلك العام أن أصيب معلم فى قرية من ضواحى كنتون بمرض وبعد إبلاله منه اعتراه خبل فى عقله وخيل إليه أنه يرى خيالات وأشباحا تومىء إليه وتخاطبه فاعتقد أنه اتصل بالروح الأعلى . ثم اعتنق النصرانية على يد أحد المبشرين فزادت عقدته النفسية وأعلن أنه قد حل فى جسده الروح القدس وأنه ملك الملوك وأنه الأخ الأصغر للمسيح فاعتقد فيه الناس وتبعه خلق كثير صارت له بهم عزوة وجاه وقوة وما عتم أن نقم على الحكومة وأعلن العصيان والتمرد على أسرة مانشو وعمالها ولم تحل سنة ١٨٥٣ حتى احتل أعوانه مدينة نانكين

العظيمة وجعلوها عاصمة لهم وزاد فى نجاحه فشل حكومة المانشو فى إخماد تلك الثورة . واتخذ (تين وانج) أى الإله الجديد أحد قصور نانكين مقراً له وبدأ يبشر بالدين الجديد ويجاهد فى نشره وأعلن للملأ اسم خليفته . وكانت دعوته تدور حول نشر رسالة السلام الأبدى فى العالم وأنه لا يتسنى ذلك الا بابادة ابليس وزبانيته ومحو أسرة مانشو من الوجود واختص هو بأداء الرسالة الروحية وأما الأمور الدنيوية فتركها لأعوانه فعين منهم حكاما على ثغوره وخلع على كل منهم لقب الملك واختار خليفته وتوارى هو فى أعماق قصره الفخم تحيط به بضع عشرة زوجة ومحظية تفرغ بينهن لرسالته السماوية تفرغا تاما . وعندما حل غوردون بالصين كانت موجة تلك الثورة قد بلغت ذروتها فاحتل الثوار مدينة شنغهاى العظيمة ولكن ما لبثت القوة الكامنة فى الأمبراطورية أن تحركت وبدأت الموجة أن تنحسر تحت ثقل وطأتها فانهزمت جيوش وانج ومحوصرت نانكين عام ١٨٥٩ لولا أن إعلان انجلترا الحرب على الصين عاق جيوش الأمبراطورية عن القضاء عليها إذ توغلت الجيوش الأوربية فى داخلية الصين واحتلت عاصمتها

(بيكين) فعاود الثوار نشاطهم بعد ركود وانتهزوا فرصة انشغال الحكومة بالحرب فاستعادوا ما خسروه من أرض ومدن وهددوا مدينة شنغهاى مرة أخرى حتى اضطر أهلوها أن يستأجروا جيشا متطوعا من مرتزقة الأوربيين والصينيين ليدفعوا به عن أنفسهم خطر جيش التايبنج (جيش السلام) وشر هجماته واستطاعت تلك القوة على صغرها أن ترد الثوار على أعقابهم وتمنعهم من الاستيلاء على المدينة حتى لقبتها الحكومة الصينية (جيش النصر) ورغم ذلك كانت شنغهاى مهددة تهديداً مستمراً . ونال جيش النصر بعض النصر ولكنه مشوب ببعض الهزائم وازدادت هجمات جيش الثوار واتسع نطاقها وأعملوا السيف والنار فى البلدان التى دخلوها حتى عم الخراب والفزع وقتل قائد جيش النصر هذا وأعقبه قائد آخر اختلف مع الحكومة فأقالته وبقى المنصب شاغراً حتى عرض على غوردون فقبله عام ١٨٦٣ . والواقع أن حركة التايبنج نالت تعضيد بريطانيا فى الصين لأسباب دينية إلا أنها عدلت عن هذه السياسة وقررت قمعها ولذلك لم تمانع فى تعيين غوردون قائدا

لجيش النصر وما كاد هذا يتسلم مهام منصبه حتى ألقى بنفسه قلباً وقالباً لقمع هذه الحركة فقد كان شديد التعطش لمثل هذه المغامرة .

وقدر غوردون أنه سيقضى على تلك الثورة فى ثمانية عشر شهرا وفعلا كان عند وعده لحاكم الإقليم (لى هنج شانج) . ولكن العمل أمامه كان شاقا مضنياً إذ أن الثوار كانوا يحتلون رقعة من الأرض تزيد على أربعة عشر ألف ميل مربع من أخصب أراضى دال النهر الأصفر يسكنها قرابة العشرين مليونا من الناس . فاستطاع بثاقب فكره وغريزته الحربية أن يتخذ من الترع والقنوات والقناطر التى تروى تلك الأراضى مركزاً للهجوم على قوات الثوار مع أن طبيعتها أصلح ما تكون للدفاع لا للهجوم .

ورغم أن القوة التى تولى قيادتها قليلة العدد إلا أنها كانت من المرونة وخفة الحركة وسرعة التوجيه مامكنه من مفاجأة الثوار والإيقاع بهم وتحميلهم أفدح الخسائر كما استغل البواخر النهرية المسلحة فى القنوات والأنهر لمهاجمة مؤخرتهم حتى أرغمهم غير

مرة على التقهقر ودأب يتخطف جوانب قواتهم جزءاً جزءاً حتى أضعفهم واستولى على كثير من مدنهم وأنزلهم من معاقلهم ولا مراء أن أعظم انتصار يسجل له هو انتصار شخصيته الفذة التى استطاعت أن تخلق من هذه القوة وعدتها ثلاثة آلاف مقاتل — وهم أخلاط من المشردين وقطاع الطرق والغوغاء الذين لا يخضعون لأمر كل همهم السلب والنهب يثورون بل ويفرون عند أول دعوة للنظام — جيشا نظامياً بقوة شخصيته واستطاع أن ينال احترامهم وطاعتهم العمياء وفرض عليهم نظاما دقيقا ومنعهم من السلب والنهب بتقرير مرتبات ثابتة لهم وكسوة رسمية ومع ذلك فقد ثاروا عليه أكثر من مرة ونجا من الموت المحقق بأعجوبة بفضل شجاعته وصبره ورباطة جأشه وكان إذا قادهم فى المعركة تقدمهم غير هياب فانتشر صيته حتى وصل إلى آذان أعدائه فاكبروه وهابوه حتى أن ضباط جيش الثوار كانوا يأمرون جنودهم بألا يتخذوه هدفا لرصاصهم عند احتدام القتال .

ولم تقف هموم غوردون عند هذا الحد بل كان عليه أن يسوى الخلافات التى نشبت بينه وبين الحكومة الصينية إذ أن

لى هنج شان حاكم الاقليم الذى ترك لنا مذكراته عن الحقبة التى قضاها غوردون بصحبته وامتدحه فيها وأشاد بمناقبه انقلب عليه وعمل على النكاية به بسبب عدم تبجيل غوردون لذلك القائد فملأه ذلك غيظا وحنقا عليه فلما سلم الثوار بمدينة (سوشو) لجيش غوردون تعهد هذا أن يضمن للقواد والضباط والجنود الذين سلموا اليه سلامة أرواحهم فلما احتل جنود الحكومة المدينة أمر لى شانج باعدامهم جميعا فاعدموا رميا بالرصاص فلما بلغ غوردون ذلك ثارت ثائرته وحمل مسدسا محشوا ورؤى وهو يهرع باحثا عن لى شانج ليقتله إلا أن الأخير أقسم له باغلظ الايمان بانه لم يصدر عنه أمر لا شفوى ولا كتابى باعدامهم وأن مقتل هؤلاء الثوار كان من الطبيعى أن يحدث لأنه لا يخرج عن الأخذ بالثأر منهم . واحتال الحاكم كى يخفف من حدة غضب غوردون بان قدم له مبلغا كبيرا من المال فرفض أن يقبله ولما عرض عليه أن تمنحه الحكومة الصينية نوطا مكافأة له على خدماته رفض ذلك أيضا وأعقب ذلك بتقديم استقالته التى لم تقبلها الحكومة ولم يعد إلى تولى قيادة جيش النصر إلا بعد الحاح شديد وفى

عام ١٨٦٤ قضى على جيش الثوار قضاء تاما ثم سرحت جنود جيش النصر وسقطت مدينة نانكين فى يد جيش الحكومة وزعزعت أركان عرش ملك السماوات فانتحر ومن ثم اغدقت حكومة الصين الألقاب على غوردون ومنحته لقب جنرال وقدمت له مكافأة مالية فاعتذر عن قبولها ولم يقبل غير مدلاة ضخمة من الذهب أهداها اليه الامبراطور وفى نهاية عام ١٨٦٤ عاد إلى انجلترا وانعمت عليه الحكومة الانجليزية برتبة شرف متواضعة واشتهر فى بلاده باسم غوردون الصينى .

الحكومة البريطانية تتجاهله

والحق أن الحكومة الانجليزية لم تكافئه إلا كما تكافىء أحد الكتبة المخلصين عند الاحالة إلى المعاش وظلت تنظر اليه نظرة ازدراء وعدم احترام وغمطته حقه حتى اللحظة الاخيرة من حياته ولو أن رجلا آخر فى مكان غوردون لاستغل ماناله من الحظوة والشهرة عند الشعب الانجليزى الذى قابله عند عودته استقبالا حماسيا منقطع النظير ليعلن عن نفسه باوسع الدعايات ويحيط شخصه بهالة من أبهة المجد وبذلك يرغم

الرجال الرسميين على أن يحنوا له رؤوسهم ويجبرهم على تغيير نظرتهم اليه بتقديره حق قدره ولكن غوردون كان بطبيعته غير أنيس . فى أخلاقه نفور وابتعاد يكره المآدب والحفلات والرسميات يتحاشى جانب النساء وأخشى ما كان يخشاه مفاسد هذه الحياة الدنيا وغرورها . فلما عين فى (جريفز أند) ليشرف على بناء سلسلة من القلاع على مصب نهر التيمز بقى مكانه متواريا عن الانظار ست سنوات يعمل فى هدوء وصمت حتى عفت ذكراه ونسيه الناس وهو مشغول مغمور فى عمله وأما أوقات فراغه فقسمها بين عمل الخيرات والمبرات وبين التأملات الدينية . حتى أصبح صديقا لكل أهل ذلك المرفأ الصغير محببا إلى نفوسهم فهو آنا يتحدث إلى بحارة السفن أو نراه يحمل شيئا من القوت للأسر الفقيرة أو يزور سيدة مسنة مريضة ليستفسر عن صحتها ويساعدها على اشعال موقدها بينما ترى الاطفال فى الطريق يتعلقون باذياله أو يغزون حديقته وبيته للهو واللعب أو يحضرون اليه ليلقنهم الكتابة والقراءة أو يسعى ليجد لهم عملا يرتزقون منه وظل بعضهم يكاتبه لما هجروا قريتهم فى

سبيل الرزق . وفى سبيل عمل البر حرم نفسه من متع الحياة التى كانت حقا لمن هم فى مكانته فعاش على الكفاف من الطعام حتى يوفر للمساكين شيئا من ماله القليل فبدا للناظر نا حلازرى الملبس يكاد لايختلط بأحد غير هؤلاء المساكين والفقراء من الصبية فلم يتزوج قط بل صرف ساعات وحدته فى التأملات الدينية والتمعن فى فلسفة الوجود وكبرت معه عقدته النفسية التى خلقتها غريزته الميالة للتمعن فى أمور الدين .

عقيدته ورءوسه الدينى

فثابر على قراءة الانجيل مرارا وتكرارا دون أن يعتريه ملل باحثا منقبا عن الحقيقة ليزيل بها شكوك نفسه وكنه تشكك الفلاسفة وتفسيرات المفسرين المجتهدين ليرد على استخفاف الدهريين بالدين ويؤيد تقاليد الكنيسة وظل يدور حول نفسه فى تلك الدائرة حتى انتهى بأن اختط لنفسه مذهبا فريداً ظن أن فيه خلاص روحه . والحق أنه لم يكن يهمه إلا أن يعرف أوامر الإنجيل ونواهيه وعليه الطاعة والائتمار فعكف على قراءة الكتاب المقدس وتفهمه حتى يتبين الحرام والحلال وظل كذلك

إلى آخر حياته . وقد خلص إلى عقيدة خاصة لنفسه وفلسفة دينية وصل إليها بعد طول درس وتمحيص فاعتقد أن الرجل الصالح هو الذى يخضع لارادة الله ولا يستطيع ذلك إلا كل زاهد فى عرض الدنيا وقانع منها باليسير حتى تندمج روحه بالروح الاعلى وأن أرواح الناس قد خلقت من القدم وأنها خالدة فى المستأنف اللا نهائى وما هذه الدنيا إلا زيف زائل وما اللحم والدم إلا حفنة من تراب ورماد ولا يخلد من الانسان غير روحه وهى الحقيقة الثابتة التى لاشك فيها وقد عرض لتلك العقيدة فى رسائله لاخته أوجستا وفسرها تفسيرا لايدع مجالا للشك فى عقيدة الزهد والتقشف التى توصل إليها خلال تأملاته .

والحق أن تلك العقيدة ليست بالشىء الجديد فى الفكر الدينى فقد سبقه اليها الرهبان وفقراء الهند ولكن العجيب أنه كان من المتوقع من شخص يدين بها أن يترك جانبا مهام الدنيا وعملها ويطلق العالم ليعيش عيشة المعصومين الزاهدين إلا أنه لم يفعل إذ سرعان ما تناديه الدنيا حتى يلبى نداءها لأنه يحمل فى طيات طبيعته نفسا يتفجر منها النشاط وحب المخاطرة وجرأة

تستصغر شأن الأخطار مهما عظمت . نفسا جياشة بالاقدام طبعت على الاعتزاز والثقة بالنفس وكلفت بالسيطرة والزعامة . وأغلب الظن أنه لم يعثر فى الإنجيل على نص صريح يحتم عليه الانزواء والرهبنة أو على آية تمنعه من مجاراة طبيعة نفسه بل كل ما وجده وتأثر به هو أن قضاء الله لامرد له وأن العبد لا بد أن يخضع لما قضاه ربه ولو كان فى طاعته محن ومخاطر ومهالك وإلا كان العبد عاصيا لربه مغضوبا عليه فى الدنيا والآخرة .

إذن كان غوردون يعتقد بالقضاء والقدر والاستسلام المطلق لارادة الله وأن الانسان مسير لامخير وبذلك استطاع أن يوفق بين نزعات نفسه وغريزته المغامرة وبين ارادة الله التى كان يعتقد بأنها تدفعه دفعاً وتسخره تسخيراً وأن يد البارىء جل وعلا تحركه وتوجهه حيث شاءت وما عليه إلا الطاعة والائتمار . ولذلك نراه لا يكترث لتراث الدنيا من نشب أو سلطان غير أنه كان شديد الاغتباط فى دخيلة نفسه بتلك العقيدة التى طابقت بين طاعة الله واطماع نفسه . تلك كانت كنه احساساته . ولكن الذين كتبوا عنه وحللوا حياته فسروا تلك العقيدة بانها

لم تكن غير غريزة حب الطموح والتعطش للشهرة والنفوذ وقيادة الجماهير وتلمسه لأى سبيل يستطيع أن يخرج به من حدود افقه المحدود الى حياة ارحب جنابا وأعرض رقعة حيث يشبع أعمق ميوله وغرائزه . والحقيقة أن غوردون كان يحمل فى اعماق نفسه نزعات متضاربة حيث تنتهى الانانيـــة فى الاستسلام وتتلاشى الروح فى الجسد وحيث تمحى ظلال الجسد الكثيف فى نوارنية النفس . ولكن ماهو قضاء الله الذى كتبه لغوردون ؟ هذه هى المسألة الأبدية التى لم يستطع غوردون نفسه أن يجيب عليها أو أن يعرف كنهها ! ولكن نظرة واحدة على رسائله التى والى بها أصدقاءه وشقيقته وعلى تعليقاته الدينية على الإنجيل تدل كل ذى نظر على مقدار الحيرة والقلق اللذين ساوراه ويلمح من بين ثنايا ورعه وتقاه وتقشفه صورة البطل المناضل وصفاته . ذلك البطل الذى بنى شهرته فى القارات الثلاث .

القدر يأبى هذه العزلة

وما عتم القدر أن نزعه من عزلته فى تلك القرية إذ انتدب ممثلا لانجلترا فى لجنة الملاحة بنهر الدانوب فسافر فى عجلة الى

استامبول وهناك شاءت الأقدار أن يقابل نوبار باشا الوزير المصرى بمحض الصدفة فعرض عليه هذا أن يتولى منصب حاكم مديرية خط الاستواء فقبل العرض فوراً وعبر غوردون عن شديد اغتباطه وشكره لله سبحانه وتعالى الذى يدبر الأمور ويوجهها كيف شاء وأن الانسان بين يديه أشبه مايكون بجواد يستجيب لإرادة راكبه يسوقه حيث أراد سواء أرضى الجواد أم لم يرض وكذلك الحوادث تسير كما كتب لها الله أن تكون .

وأعقب ذلك عمل مضن ومشاق هائلة فى أعماق تلك المناطق الاستوائية المجهولة التى تمتد جنوباً إلى منطقة البحيرات الكبرى ومنابع النيل حيث امتدت إمبراطورية الخديوى اسماعيل باشا الذى دأب على نشر الحضارة فى تلك البلاد بشتى الوسائل الانسانية الخالصة مما رفع شأن مصر بين أمم العالم المتمدين — فألغى الاتجار بالرقيق وحارب تجاره وحكم تلك البلاد على أسس من الحرية والعدالة ناظراً فى كل ذلك إلى صالح أهاليها واستخدم لتنفيذ مشروعاته الاصلاحية عدداً من رجالات انجلترا النابهين أمثال السير صامويل بيكر الذى كان حاكماً على مديرية خط

الاستواء ثم خلفه الجنرال غوردون الذى اعتقد أن يد الله هى التى وجهته إلى ذلك القصد فلما عرضت عليه الحكومة المصرية مرتباً ضخما (١٠٠٠٠ جنيه فى العام) لم يقبل وقنع أن يكون ألفين فقط . ثم كان أن تسلم مهام منصبه فى أوائل عام ١٨٧٤ وما أن وصل إلى الخرطوم حتى استقبل فيها استقبالا حافلا ومن ثم سار جنوباً حتى وصل إلى مقر حكمه وهو يبعد ١٥٠٠ ميلا جنوب الخرطوم وهناك أطبقت عليه آجام المنطقة الاستوائية وبراريها ، وهناك أدرك لأول مرة المشاق المنهكة التى يجب عليه أن يواجهها فقضى ثلاث سنوات فى كفاح عنيف وسط جو منهك للأعصاب وحافل من الحشرات الزاحفة والأمراض الخبيثة هذا إلى خمول مرءوسيه واستهانة رؤسائه ووحشية تجار الرقيق وتذمر الأهالى وكراهيتهم فضلا عن وفاة عدد كبير من معاونيه الأوروبيين بسبب سوء المناخ ، مع قلة الحامية المصرية التى كان عليها أن تخمد الثورات وتنشىء الطرق وتشيد الحصون وتنفذ أوامر الحكومة ، فترك لمعاونه جيسى فخر كشف بحيرة ألبرت نيانزا وفى وسط كل هذه المتاعب كان يعبر فى رسائله عن

قلقه وعزلته وعن ازدياد عقيدته فى الله وأنه لامرد لقضائه واختياره وأنه راض بما قسم له من الانقطاع عن العالم بلهوه وأحزانه .

التجاؤه الى الخمر وشذوذه

وفى غمرة العمل المنهك تحت شمس إفريقيا اللافحة نرى يده تمتد إلى زجاجة الخمر يستعين بها على رد قواه المتداعية وساورته الخارف والتفوط حتى أصيب بما يشبه الجنون الهادىء فأصبحت أخلاقه مجموعة من المتناقضات إذ يظل شهوراً لا يمس الخمر ولا يشرب غير الماء النقى ثم ينقلب فلا يشرب إلا الماء الملوث ثم يحتجب فى خيمته أياما متعاقبة لا يكلم أحداً ويمتنع عن الاتصال بأى إنسان ثم إذا به يخرج فجأة من مكمنه أوفر مايكون صحة ونشاطاً تعلو وجهه ابتسامة عريضة . وحدث ذات يوم وهو قابع فى خلوته أن جرؤ رئيس أركان حرب الجيش بعد تردد قليل أن يقتحم عليه عزلته متجاهلا أوامر الحظر رغم أن الراية المرفوعة على مضربه تنذر كل مخالف بسوء المغبة وذلك لأن أهالى تلك الجهة بدأوا يتجمعون ويستعدون

لمهاجمة المعسكر فما أن رآه غوردون وعرف سبب دخوله حتى أفهمه بفتور شديد أنه هو القائد المباشر وله حرية التصرف فاغتاظ هذا أن يعود أدراجه دون أن يظفر منه بأى توجيه وجعل يعالج الأمور على قدر مايستطيع . ولشد ما كانت دهشة هذا الضابط عندما دخل عليه غوردون فى اليوم التالى ضاحكا ومعتذراً بأنه كان بالأمس منقبض النفس ثم دعاه إلى تناول الفطور معه واحتساء زجاجة من الكونياك والصودا . وقد أصبح الشراب عادة لديه وتحت تأثيره ظهرت عليه بوادر الخبل والشذوذ فى أخلاقه كما ظهر صدى ذلك فى رسائله الصاخبة ومكاتباته لرؤسائه فحينا نراه يسخر منهم وينعى عليهم عجزهم وسوء تصرفهم وحينا نراه فظا قاسيا يعامل مرءوسيه أسوأ معاملة فيرتعدون فى حضرته ارتعاداً فرقا من تفجر غضبه وشدة انفعاله وينقلب هذا القديس المؤمن بالله بين لحظة وأخرى وحشاً عاتياً لا يتورع عن ضرب ضباطه ضربا مبرحا أو يركل أخص خدمه وأخلصهم فى قسوة وعنف فيفرون من حضرته وقد علا صراخهم من الألم .

وفى نهاية أعوامه الثلاثة فى حكومة مديرية خط الاستواء قدم غوردون استقالته للخديوى وتأهب للعودة إلى بلاده ، ولكن يد الله التى تسيره تدخلت مرة أخرى وحولته عن أن يتم عزمة إذ عرض عليه الجناب العالى الخديوى منصب الحاكم العام للسودان فلم يتردد فى القبول طاعة منه لأمر الله فقضى هناك ثلاث سنوات أخرى وهو يحاول بسط سلطان حكومة مصر على تلك الأرجاء الشاسعة بينما جد فى القضاء على تجار الرقيق وناضلهم أعنف نضال ، وقد واجهته طوال تلك الأعوام مشاكل لانهاية لها ولا حصر وهو ملازم سرايه بالخرطوم لم يبرحها اللهم إلا فترة قصيرة استدعى فيها إلى مصر ليرأس لجنة حكومية لإصلاح وتسوية الحالة المالية شكلت من ممثلين لأرباب الديون وكان بينهم السير إفلن بيرنج . فتقابل - لأول مرة - هذان الرجلان اللذان قدرت لهما الحوادث أن يرتبطا ببعضهما ارتباطا عجيبا . ولم يرتح غوردون لمعرفة بيرنج منذ اللحظة الأولى ، وثارت بينهما المشاكل والمشادات واستحال عليهما التفاهم ، وما عتم غوردون أن اعتذر عن رياسة اللجنة وتخلى عنها وعاد أدراجه إلى مقر منصبه فى السودان .

وحدث أثناء غيبته عنها أن نشبت ثورة مسلحة فى دارفور وهى مديرية فى الطرف الغربى من السودان ، وكانت يوما ما مقراً للزبير (الزبير باشا فيما بعد) وكان قد أقام فيها مركزا حصينا لتجارة الرقيق ، ولكنه انضم إلى جانب حكومة الخديوى وطلب أن يؤذن له بالتشرف بمقابلة الجناب العالى فأذن له وأنعم عليه برتبة الباشوية ولم يؤذن له بعد ذلك فى العودة إلى السودان فثار ابنه سليمان فى دارفور وحل محل أبيه وتحدى سلطان الحكومة والحاكم العام .

مغامرة جنونية

فلما عاد غوردون غامر مغامرة عجيبة لإخماد تلك الثوره إذ سارع بمفرده على ظهر قلوص سريع دون أن يحيط به حرس سوى نفر قليل من رجاله وساقه سوقا عنيفا تحت حرارة الشمس المحرقة طاويا نيفا وثمانين ميلا وسط صحراء جرداء وفاجأ سليمان ورهطه فى معسكره مفاجأة أبهت ألسنتهم وأذهلتهم وشلت حركتهم وألقت الرعب فى قلوبهم وانقسموا على أنفسهم فما أن أمرهم غوردون بالتزام السكينة وترك العصيان وهددهم بالعقاب الشديد حتى قوضوا خيامهم وفضوا جمعهم وخمدت

ثورتهم ثم قفل راجعا إلى الخرطوم ظافرا منتصرا ، وفر سليمان إلى الجنوب حيث تعقبته القوات المصرية فلم تظفر به بل كان ذلك من نصيب (جيسى) مساعده الايطالى الذى طارد سليمان وضيق عليه الخناق حتى استسلم ومن ثم قتله رميا بالرصاص فنال فخر ذلك الظفر الأخير . ورغم مقتل سليمان فإن تجارة الرقيق لم تنقطع إذ كان تضاعف الطلب عليها فى القاهرة واستامبول حافزا لتجار العبيد أن يخاطروا بحياتهم فى سبيل الأرباح المادية المغرية ، قال غوردون « لو استطعت أن تمحو المداد من ورق النشاف لاستطعت أن تمحو تجارة الرقيق من افريقيا . انى أشعر بعجزى الشديد فى تلك المهمة وليس لى إلا أن أسأل الله العون والغوث حتى تنجلى هذه المأساة » .

وقدم غوردون استقالته عندما عزل اسماعيل باشا واستعد للعودة إلى انجلترا غير أنه كُلف بمفاوضة النجاشى فنشل فى مهمته واستطاع أن يعود إلى القاهرة بعد مصاعب جمة ومتاعب شديدة لاقاها على يد الأحباش ، ولشد ما كانت دهشته عندما وجد جو الحكومة فى مصر مشبعا بالدعاية ضده حيث رماه أعداؤه بالتمرد والجنون ، وهكذا غادر مصر مشيعا بوابل من اللعنات والشتائم ودلت ظواهر هذه الظروف على أن عودته إلى مصر

أصبحت من رابع المستحيلات وأن الأسباب انقطعت ما بينه وبينها إلى الأبد .

بحث عن مغامرات جديدة

وصل غوردون إلى انجلترا عام ١٨٨٠ فى حالة يرثى لها محطم الجسم سقيما شديد الإعياء فكان من المتوقع بعد ذلك الجهاد الشاق فى افريقيا زهاء ستة أعوام أن يخلد إلى الراحة والاستجمام ولكن الضد هو الذى حدث إذ أن السنوات الثلاث التالية لعودته كانت أشد سنى حياته نشاطا وحركة . فانتقل من منصب إلى منصب ومن مغامرة إلى أخرى ومن قارة إلى قارة بسرعة البرق الخاطف فحينا تراه يقبل منصب السكرتير الخاص للورد ريبون نائب الملك فى الهند ويدهش العالم ويفاجئه بالاستقالة من هذا المنصب ولما يمض على وصوله بمباى أكثر من ثلاثة أيام لأنه كان يحس فى قرارة نفسه أنه لن يصلح لمثل ذلك المنصب فقد أفضى بدخيلة نفسه يوما إلى أحد معارفه فاعترف بأن الدنيا تكاد تضيق بأطماع نفسه وأنه لا يقنع بملك أو مملكة مهما اتسعت وأنه يشعر بعبء جسده المادى المحدود وينتظر الساعة التى يتخلص منه فيها ولذلك يستقبل الموت بصدر رحب .

ثم نراه بعد ذلك فى بكين حيث استدعته الحكومة الصينية لتستعين به فى أزمتها مع روسيا ولم تطل إقامته بها إذ استدعته الحكومة البريطانية وأمرته بالعودة فوراً لأن حركاته بالصين أقلقت بال الدوائر الرسمية وماأن وصل إلى انجلترا حتى أبرق إلى حكومة جنوب أفريقيا يعرض عليها خدماته فى حربها ضد قبائل الباسوتو ولكنه لم يتلق رداً على برقيته .

ثم نراه بعد ذلك يعين فى منصب بجزيرة (مورتيوس) حيث قضى زهاء عام وفى أثناء إقامته بها وصله رد حكومة جنوب افريقيا فسارع إلى مدينة الكاب ولم تطل بها إقامته أيضا إذ اختلف مع الحكومة وغادر البلاد مباشرة وأعقبت كل هذه الحركات فترة هدوء وسكون حاول أثناءها عبثا أن يستوحى الغيب عما خطته له يد القدر ، وهنا بغتته رسالة من ملك البلجيك يطلب إليه أن يقبل منصبا فى مستعمرة الكنغو ووقف العرض عند ذلك الحد ، وفى تلك اللحظة نراه فى فلسطين وتحت إبطه الكتاب المقدس يجوس خلال أرضها باحثا ومنقبا وراء تحقيق ماورد فى نصوص الانجيل عن بعض البقع التاريخية وتندفع من قلمه رسائل لأصدقائه بلغت نيفا وألفى صحيفه .

وشاء الله له ألا يعمل فى الكنغو بل شاء له أن يعمل فى مجال آخر . والعجيب أن تكون آخر مغامراته بسبب ثورة دينية كما كانت أولاها تماما .

ثورة المهدى

إذ فى اللحظة التى كان ينفض فيها غبار مصر عن كتفيه إلى غير رجعه نشبت ثورة محمد أحمد المهدى فى السودان . وكانت الظروف مواتية ومهيأة لنجاح تلك الثورة إذ انتشر السخط فى السودان لأسباب عديدة كان بينها بل أهمها الطريقة العنيفة التى اختطها غوردون للقضاء على تجارة الرقيق وتنفيذ احتكار الحكومة المصرية لتجارة العاج بالقوة والقسر ثم البغض الدفين بين تجار الرقيق وبين الموظفين المصريين . كل هذه الأسباب قد فعلت فعلها وانتشرت روح السخط والنقمة على الحكومة بين الأهلين فزالت ثقتهم بالادارة المصرية بل وباءت الحكومة بكراهية وعداء طبقتين من أقوى الطبقات فى السودان وهما تجار الرقيق وتجار العاج .

وما كاد غوردون يغادر السودان حتى لقيت دعوة محمد أحمد آذانا صاغية وبدأت الثورة المشهورة واتخذ المهدى جزيرة أبا مركزا

لنشر تعاليمه التى دعا فيها إلى وجوب تطهير الدين من الزيف والشوائب الدنيويه وأنه يجب العودة به إلى القناعه والبساطة والقدسيه وهى أخص صفات الدين الاسلامى فى فجر الاسلام فحرم ماحرم وحلل ماحلل فتبعه خلق كثير وانتشر نفوذه الدينى انتشاراً واسعا (قارن بين حركة التايبنج فى الصين وبين حركة محمد أحمد فى السودان فكلاهما ذات أسباب دينية فى مطلعها) .

ثم كان أن لقّب نفسه المهدى فأظهر الكرامات وادعى الكشف عن الغيب كما ادعى أنه من نسل النبوة وآزره على دعواه جسم عملاق ومظهر جبار مهيب فالتفت حوله عصبة وعدهم بجنة الخلد إذا هم تبعوه وصدقوه فى الحرب ضد الكفار الذين أذلوا رقابهم وأرهقوهم بالضرائب وأذاقوهم ألوان العذاب والظلم جزاء وفاء من عند الله للسودانيين الذين ضلوا السبيل وأهملوا الدين .

الحاكم العام يقدر قوة المهدى

وما كاد الحاكم العام إذ ذاك يتلقى خبر قيام تلك الحركة الدينية فى جزيرة أبا وأن هناك مهدياً حتى هب من فوره وأرسل رسولا (هو محمد بك أبو السعود العقاد أحد معاونى محمد رءوف

باشا حكمدار السودان) لدعوة محمد أحمـــد إلى إظهار الطاعة للحكومة وطلب إلى المهدى أن يصحبه إلى الخرطوم وما كاد الرسول ينتهى من حديثه حتى ثار فى وجهه المهدى ثورة خشى معها على حياته فانسحب وقفل راجعاً على وجه السرعه . ولم ير الحاكم بدأ بعد ذلك من إرسال قوة صغيرة من الجنود للقبض على المهدى ! ولـكن هذا بيتها وأبادها فانتشرت أنباء انتصاره على المصريين انتشار النار فى الهشيم ، ولم يكن المهدى من السذاجة بحيث يظن أن قواته كانت كافية للتغلب على المصريين ، فأمر أتباعه (بالهجرة) إلى داخلية كردفان وكانت هجرة ظافرة مباركة عليه إذ انضمت اليه قبائل (البقارة) وهى قبائل تشتغل بالرعى وترتزق من الاتجار بالماشية والرقيق وهى أقوى القبائل الحربية فى تلك الأنحاء ، وقد نالها من عسف غوردون ماجعلها تحنق على مصر والمصريين . وهنا أعلن المهدى الجهاد الدينى على الـكفار وسرعان ما انقلب أتباع المهدى إلى جيش عرمرم واتخذوا الجبة البيضاء المرقعة لباسا لهم وتلقبوا بالدراويش ووقفوا موقف الدفاع وردوا القوات المصرية وهزموها .

ثم ماعتم المهدى أن انقلب من الدفاع إلى الهجوم لما ازدادت قوته ، وأرسل جيوشه فأخضعت دارفور وكردفان ، ثم هاجم

الأبيض عاصمة كردفان وحاصرها وعبثاً حاولت الحكومة إنجاد الحامية ، (كان قائدها محمد سعيد باشا حاكم غرب السودان) لفك الحصار عن المدينه إذ كان قد ضرب عليها حصاراً محكماً فسقطت بعد حصار دام ستة شهور وغنم كميات كبيرة من السلاح والذخيرة والأموال التى بلغت مائة ألف جنيها ذهباً فأصبح بذلك السيد المطاع فى كردفان وتوفر بذلك لديه المال والسلاح والأتباع الذين كانوا يعبدونه فانفسحت أمامه سبل الآمال والأطماع وجالت فى نفسه أحلام امبراطورية واسعة إذ لم يعد تحقيق أطماعه بعيد المنال فقد أصبح من القوة والسطوة والثروة بحيث تصغر أمامه العقبات والشدائد .

شريعة المهدى

وفى الأبيض أقام شهوراً تفرغ فيها للتشريع لأتباعه فأمرهم باتباع التقشف الشديد فى حياتهم وهدد كل مخالف بأشد العذاب فمن إعدام إلى تقطيع أوصال إلى ضرب بالسياط كما حرم الخمر ونهى عن حياة الفجور وأمرهم أن يجزوا شعورهم ويكتفوا فى غذائهم بالتبلغ بالتمر والحليب ، وأصبح الجلد أمرا عادياً حتى جعل الشبان السودانيون منه رياضة وتبارزوا فى أيهم يستطيع أن يحتمل أكثر

عدد من ضربات السياط . وهكذا عاش هؤلاء الدراويش عيش الكفاف فى ظل نظام حربى قاس أشبه بالنظام الاسبرطى. أما المهدى نفسه وأمراؤه وخلفاؤه فعاشوا عيشا بعيدا عن البساطة والكفاف وسط أرهاط من النساء والمحظيات تكتظ حظائرهم بأنواع الخيل والدواب فى بحبوحة من العيش والترف والثراء الطارىء واشتغلوا بدنياهم بمنأى عن الملأ فسرت إشاعات غريبة بين الناس عن حياة الأمراء الداخلية فى مجالس الشراب يسقونه من كؤوس من فضة خالصة نهبت من الكنائس والبيع وما تكاد تتطاير الاشاعة حتى يخرج المهدى الى شعبه ويطل على الناس فتخرس ألسنة السوء وتنقطع شكوك مريديه إذ من منهم يستطيع أن يقاوم تلك الشخصية الطاغية وتلك القوة التى تنبعث من هيكل جسمه الضخم وصدره العريض ومظهره الفخم وعينيه السوداوين تلتمعان من طول ما اكتحل بالاثمد فى وجه أروع تحيط به لحية سوداء كثه تزيد فى هيبته وسطوته . فاذا ابتسم انفرجت شفتاه عن نضد من الأسنان ذات ثنايا فلج وهو يعتجر عمامة حسنة المنظر ويأتزر جبة شديدة البياض تأرج بالطيب وعطر الصندل . وكان مع بطشه على جانب عظيم من الكياسة والحزم فاذا قامت الصلاة ام الصلاة وإذا نفر للحرب ونفخ فى الصور ودقت الطبول ورفعت الرايات

أحد أمراء الدراويش لابسا الجبة المرقعة

سار فى طليعة جيشه وهو ثابت كالطود على ظهر جواده يزحف خلفه جمع زاخر فى تيه ونظام وبسالة تحفزهم النعرة للدين الجديد .

الثورة العرابية والمهدية والاحتلال فى آن واحد

وسقطت الابيض فى يد المهدى فى يناير عام ١٨٨٣ بعد حصار طويل وبينما كانت هذه الأحداث تقع فى السودان كانت تجرى فى مصر أحداث أعظم شأنا وأبعد خطرا إذ بدأت الثورة العرابية فى مصر عند قيام الثورة المهدية فى السودان كأنما كانتا على ميعاد وكلتا الثورتين كانتا حركتين وطنيتين موجهتين ضد النفوذ الاجنبى الذى أحدث التذمر فى صفوف المحكومين .

فبينما كان السودان يجاهد لخلع نير المصريين (لم يقصد المهدى الكبير إلى فصل السودان عن مصر كما توهم المؤلف) كان المصريون يجاهدون فى خلع نير الباشوات الجركس والأتراك عن أعناقهم فقاد عرابى جيش مصر وأعلن العصيان فاضطر الخديوى إلى الاستجابة لرغبات العرابيين ودلت بوادر الأحوال على ميلاد فجر جديد وقيام نظام جديد يحل محل النظام القديم إلا أن تدخل انجلترا وضربها الاسكندرية ثم هزيمة العرابيين فى التل الكبير صدم تلك الحركة صدمة عنيفة قضت عليها فى مهدها وكان أن عاد حكم الباشوات سيرته الأولى ولكن الحقيقة التى لا مراء فيها أن

الانجليز أصبحوا منذ أن قضوا على الحركة الوطنية سادة البلاد الفعليين وأصحاب الأمر والنهي فيها . غير أن الحكومة الانجليزية لم تدرك هذه الحقيقة إلا بعد مدة طويلة . إذ أنها فى البداية لم تقبل التدخل بمفردها فى المسألة المصرية إلا بعد تردد غير يسير وقدرت أن احتلالها لمصر لا يعدو أن يكون موقوتاً كما صرحت بذلك فى اكثر من وعد على لسان رجالها الرسميين بأنها ستجلو عن البلاد بمجرد استتباب النظام فيها ولكن الباشوات لم يستطيعوا إعادة النظام إلى إدارة مصر فكان من الضرورى بقاء جيش الاحتلال بينما كان المهدى يعمل جادا فى توسيع رقعة سلطانه ونشره فى ربوع السودان وفى تلك الظروف الشاذة وقعت كارثة مروعة ذلك أن الباشوات فى تحمسهم لابراز مقدرتهم الفائقة فى إدارة البلاد والقضاء على المهدى وإخضاع السودان لسلطانهم جمعوا جيشا قوامه عشرة آلاف جندى وولوا قيادته لهكس باشا وهو ضابط انجليزى فى المعاش وامروه بل وشددوا عليه فى أن يتقدم ويهاجم قوات المهدى ويسحقها . ولم تتدخل انجلترا بتاتا فى تأليف هذه الحملة (كان السير إفلن وود أول سردار انجليزى للجيش المصرى بعد الاحتلال وفى عهده أعدت هذه الحملة ولا شك أن مسئوليتها تقع على عاتق السياسة الانجليزية رغم

إعلانها أنها لن تتدخل فى شؤون مصر) إما لعدم رغبتها ، أو لعدم استطاعتها . وأعلنت فى صراحة أن المسائل الداخلية فى مصر تخص مصر وحدها ، ولا دخل للحكومة البريطانية فيها . والعجيب أنها لم تدرك خطورة مسئوليتها وعدم استطاعتها التملص منها مادام الجيش الانجليزى باقيا فى مصر ، وفى ذلك ارتكبت خطأ جسيما ولم تدرك خطورة تصرفها إلا بعد عدة أسابيع ، واضطرها منطق الحوادث أن تتدخل .

كان جل رجال جيش هكسن باشا من بقايا جيش العرابيين المنحل ، جمعوا قسرا وغصبا ، وأرسلوا إلى الخرطوم حيث دربوا تدريبا يسيرا ، وأصدرت أوامر مشددة لهكس باشا أن يسير بهذه القوة لمهاجمة الأبيض ، فانصاع هذا تحت ضغط حكومة الباشوات فى مصر وهو يعلم الأخطار التى تتهدده ، ولكنه أغمض عينيه عنها ، فزحف وضل فى الصحراء ، وعانت جنوده من الجهد والعطش ماعانت ، وما كاد يصل إلى قرب بلدة الأبيض فى نوفمبر عام ١٨٨٣ مخترقا إحدى غابات أشجار الصمغ حتى فاجأه المهدى بقوة قوامها أربعين ألف مقاتل ، أحاطوا بجميع جيشه وفتكوا به فتكا ذريعا ، ولم ينج من

مقتل هكس باشا فى شيكان

جيش هكس باشا إلا نفر قليل (هذه موقعة شيكان على بعد ثلاثين ميلا جنوب الأبيض وقد لاحظ ونجت باشا عند زيارته لميدان الموقعة وجود بركة كبيرة من الماء على بعد ميل واحد مع أن أهم أسباب انهزام الحملة كان العطش الشديد) . وكان من أثر ذلك الانتصار الحاسم ، وانتشار خبره فى السودان أن اضطر سلاتين باشا حاكم دارفور أن يسلم الى المهدى بعد نضال عنيف مع الدراويش ، كما اضطر حاكم بحر الغزال لابتون بك أن يحتمى وراء تحصيناته ، تاركا بقية مديريته نهبا للغزاة الذين زحفوا جنوبا وكادوا يحتلون عامة مديرية خط الاستواء ، إذ ثارت القبائل بها على امين باشا فاضطر للتقهقر حتى توارى فى أعماق منطقة البحيرات الكبرى .

وأما شرق السودان فقد احتلته قوات عثمان دجنة حتى شواطىء البحر الاحمر ، وألقت الحصار على ميناء سواكن ، ومن ثم أصبحت جميع الحاميات المصرية فى السودان محصورة مشلولة الحركة ، بينما اتسع نفوذ المهدى حتى شمل رقعة فسيحة من الأرض تبلغ فى مجموعها مساحة أسبانيا وفرنسا وألمانيا مجتمعه وضيقت قواته حلقة الحصار على مدينة الخرطوم .

أما أثر هذه الكارثة فى مصر فلم يزد على أن بادر حكامها فى إعداد جيش آخر قوامه عشرة آلاف جندى يهاجمون به المهدى مرة أخرى . وهنا أدركت الحكومة البريطانيه خطورة الموقف كما أدركت عظم مسئوليتها فيما يجرى من الاحداث .

فما هو الطريق التى يجب أن تسلكها انجلترا ؟ هل تترك المصريين يتورطون فى حرب مبيره ضد المهدى ؟ أو أنه يجب عليها أن تفعل شيئا آخر ؟ ولكن ماهو هذا الشىء ؟

حياة حزب الاحرار

كان الحكم فى انجلترا فى يد حزب الاحرار — وبينهم أقلية ترى وجوب الانسحاب من مصر انسحابا ناجزا — وتعارضهم أقلية أخرى أعظم نفوذا ، وترى وجوب التدخل الفعال فى شئون مصر لتقيم فيها حكومة منتظمة ذات دعامات ثابتة تضمن الأمن فى الداخل والسلامة فى الخارج ، وصرحوا بأنهم على استعداد لو الجأتهم الضرورة أن يوجهوا جيشا بريطانيا لسحق قوات المهدى ، غير أن الغالبية فى حزب الأحرار وعلى رأسهم غلادستون فضلوا أن يتخذوا طريقا وسطا بين هاتين الأقليتين .

وعلى أن الغالبية كانت ترى أن الانسحاب من مصر عاجلا أمر غير عملى ، إلا أنهم كانوا يقرون بخطة عدم البقاء فى مصر لحظة واحدة أكثر مما تستدعيه الظروف . ﴿ هذه هى سلسلة التصريحات البريطانية بالجلاء عن مصر وقد نيفت على الستين تمتد بين عامى ١٨٧٨ أى عند ضم انجلترا لجزيرة قبرص الذى أحدث ضجة وفزعا فى مصر وفى المحيط الدولى لقربها من قناة السويس وبين عام ١٨٩٩ بعد ما أرغمت مصر على توقيع الاتفاقية المشئومه ﴾ وفى الوقت ذاته أعلنوا فى صراحة أنهم لن يتدخلوا فى شئون مصر الداخليه إلا بالقدر الضرورى جدا وأمامسألة توجيه جيش إلى السودان للقضاء على حركة المهدى فقد رفضوها رفضا باتا .

وبذلك أصبح من الجلى أنه إذا لم يوجه جيش بريطانى إلى السودان وإذا لم يكن الجيش المصرى صالحاً للحرب فى السودان كانت النتيجة المنطقيه أن تجلو الحاميات الباقيه عن أراضى السودان ويقتصر فى المستقبل على خطة الدفاع دون الهجوم .

هكذا كان قرار حكومة الأحرار والخطه التى رسمتها

الأغلبيه وقد أيدها أمران : أولا . أن حركة المهدى حركة وطنيه قامت ضد عنصر أجنبى يتحكم فى بلادها ، وثانياً أن تنفيذ مشكلة انسحاب القوات المصرية من السودان تترك إلى حنكة ممثل انجلترا فى مصر وهو السير افلن لبرنج . ولكن هناك عقبة فى سبيل تنفيذ هذه السياسه وهى معارضة الباشوات الحكام فى مصر ، إذ كانوا على اقتناع تام بأنهم سيكونون أحسن حظا فى المرة الثانيه منهم فى المرة الأولى ، وأن جيشاً جديداً تحت قيادة ضابط جديد سيقضى على المهدى قضاء مبرما ، وحتى لو فرض وانهزم الجيش الثانى فانهم سيرسلون جيشاً ثالثاً . وأمام هذه المعارضة الشديده من جانب حكومة مصر ، وأمام رفضهم نصيحة انجلترا لم تر الحكومة البريطانية بدأ من استعمال الضغط السياسى والتهديد ، فأخطرت السير افلن بيرنج بأنه فى حالة رفض الحكومة المصريه إخلاء السودان فعليه أن يلح على الخديوى فى إقالة تلك الوزاره ، واختيار وزارة أخرى يشترط أن يكون من برنامجها سلفاً قبول رأى الإنجليز وتنفيذ مشورتها .

﴿ هذا ابتداء سياسة النصائح الاجباريه التى سارت عليها حكومة

لأحرار واتخذت من صيانة النظام فى مصر ذريعة للضغط على الحكومة المصرية بوجوب إتباع مشورتها ويبدو أن هناك برقيتان بهذا المعنى تفصلهما سنة تقريباً إذ لم تستطع بريطانيا تنفيذ مآربها فى عام ١٨٨٣ فأعادت الكرة عام ١٨٨٤ ونجحت بسبب ضعف الحكومة والكوارث التى حلت بمصر ثم عثورها على نوبار باشا الذى وافق على اتباع مشورة إنجلترا فجر على البلاد بسياسته أعظم البلاء ولكن هل لنا أن نتساءل وما تزال مسألة السودان معلقه بعد خمسين عاماً ماهى السياسة التى كان يجب على رجالات مصر اتباعها إذ ذاك وخاصة بعد إخماد أنفاس الحركة الوطنيه وإلغاء مجلس النواب وتغلغل النفوذ البريطانى فى الحكومة المصريه ﴾ .

عقلية الرأى العام البريطانى الاستعمارية :

ولم يقتصر الأمر على الحكومة البريطانية بل تسرب الاهتمام إلى الرأى العام الانجليزى وبدأ يدرك خطورة الموقف فى مصر وكانت أخبار كارثة هكس باشا لم تنشر برمتها ولكن بعد قليل نشرت الجرائد الإنجليزية جميع التفاصيل وأسهبت فيها

تحت عناوين ضخمة ، فعمت الجزر البريطانية موجة من الفزع ، وللمرة الأولى تهتم الصحف البريطانية بنشر معلومات عن شئون السودان ، وثورة المهدى وأوصافه ، ومن ثم انهالت رسائل القراء من شتى الطبقات على الصحف يطلب فيها أصحابها توجيه حملة تأديبيه ضد هؤلاء الثائرين ، وأفسحت الصحف صدرها لمناقشات ومقترحات لانهاية لها عن حالة مصر والسودان ومستقبلهما ! وفى مستهل عام ١٨٨٤ وصلت برقية من قائد الحامية المصريه فى الخرطوم (وهو انجليزى) أن العدو بدأ يحتشد حول المدينه ويوشك أن يحاصرها ، وأنها أصبحت فى خطر ، والحامية بها قليله ، ولن تستطيع أن تصمد فى وجه قوات المهدى إلا شهراً واحداً على الأكثر ، وأشار بوجوب انسحاب هذه الحاميه .

ودلت بوادر الأمور على قرب وقوع كارثة أخرى مفزعة فكان لامناص إذ ذاك من المبادرة باتخاذ عمل حاسم سريع لإنقاذ الحاميات المصريه قبل أن تقع ، ومن ثم تلقى السير افلن بيرنج تعليماته النهائيه من الحكومة البريطانيه ووجه إنذاراً

إلى الحكومة المصرية يحتم عليها قبول مشورة حكومته في الانسحاب من السودان ، أو أن تستقيل في حالة رفضها تلك المشوره ، فرفضت الوزارة اقتراح الحكومة البريطانية ، ومن ثم قدمت استقالتها يوم ٧ يناير سنة ١٨٨٤ وحلت محلها وزارة أخرى كانت أطوع في تنفيذ السياسة البريطانيه ﴿ استقال شريف باشا وقبلت استقالته وفي اليوم التالي مباشرة ألف نوبار وزارته التي قبلت إخلاء السودان واختفى شريف باشا نهائياً من ميدان السياسة المصرية وما يزال التاريخ بسبيل استقراء أعماله ليحكم له أو عليه ﴾ . وفي نفس اليوم كان غوردون قد وصل إلى ميناء سوثامبتون بانجلترا .

غوردون يسدد ضربته في عشرة أيام :

وصل غوردون إلى انجلترا وقد نيفت سنه على الخمسين فلم يحفل به أحد ولم يلتفت إليه أحد ، رغم الشهرة التي نالها في إخماد الثورة في الصين ، ورغم أن ذكرى غوردون الصيني كانت لاتزال تجرى على ألسنة الناس بين حين وآخر . ولكن اسمه كان قد عفى عليه النسيان ، فقد قضى هذا الرجل زهرة حياته

فى خدمة الدول الأجنبيه ، أعقبتها فترة طويلة من الانزواء والخمول ، ثم كان أن دعاه ملك البلجيك لمهمة أخرى ، هى أن يشرف على إدارة الكنغو وهى إقطاع خاص بجلالته . ولو قدر له أن يضطلع بهذا العمل ، وأن يحتمل أثقال العمل ووطأة المناخ وهو فى تلك الاصقاع لعاد إلى وطنه محطما هرماً ليقبع ويقنع بدار حقيرة وحياة مغموره ، ولكن العجيب أن رجلا منسياً مثله تحول تفكيره إلى العمل فى الكنغو فقط يصبح اسمه بين يوم وآخر على كل لسان ، فترتد إليه الحياة بغتة بعد طول ثوائه . إذ لم تكد تمضى عشرة أيام على وصوله حتى حدث ذلك التطور الغريب . إذ أصبح بغتة معبود الجماهير مرة أخرى ، وأصبح رجل الساعه الذى يستطيع أن يواجه خطر الموقف فى السودان ووقع عليه الاختيار المطلق للاضطلاع بتلك المهمه التى ستضفى عليه شهرة خالده ، وتزيد من تعلق الرأى العام به ، فقد كلف فى ذلك اليوم أن يغادر انجلترا إلى السودان .

تحليل تلك الظاهرة

وهنا يحسن بنا أن نقف قليلا حتى نحقق الأسباب التى

أحدثت ذلك التطور الفجائى الذى طرأ على حياة غوردون وعلى خطته ، وكيف تحولت من مهمة فى الكنغو إلى مهمة فى السودان ، ونحن نرى أنه ليس من اليسير الوقوف على حقيقة تلك الظروف التى أحدثت ذلك التحول ، بسبب أنها ماتزال إلى اليوم مجهولة لدى الرأى العام البريطانى ، على أنها كانت معروفة لدى فريق محدود من ذوى النفوذ والحيثيه ولكنهم لم يصارحوا بها أحدا ما ، وظلت بمنأى عن الجمهور إلا أننا رغم ذلك التكتم نستطيع أن نستخلصها من مجموع الحقائق والوقائع الثابته التى حدثت إذ ذاك .

فأولا وقبل كل شىء أنه ماكاد يعلن اتفاق إخلاء السودان حتى أدرك الجميع أن تنفيذ تلك الخطه (أى الإخلاء) ينطوى على صعوبات وعقبات جمه ، وأنه من المحتم لتنفيذها أن يختار لها رجل له من الكفاية والدراية والشخصيه مايضمن لها النجاح. وحدث فى نوفمبر عام ١٨٨٣ أن اقترح أحدهم — وهو مجهول — أن يكون ذلك الرجل غوردون بالذات ، فاتصلت الحكومة بالسير أفلن بيرنج تسأله عن ترشيح غوردون لتلك المهمه إن لم

يكن لديه مانع ، فرد السر افلن بأن الوزارة المصرية تعارض أشد المعارضه فى إخلاء السودان ، وأن الكلام فى الانسحاب أصبح عديم الفائده ، لأن الحكومة المصرية أغلقت باب تلك المسألة إغلاقا تاما . (استند بيرنج فى الرد على هذه الرسالة إلى معارضة الحكومة المصريه والحقيقة هى أنه كان يبغض غوردون شخصيا ويعتبر وجوده إلى جانبه انتقاصا من سلطته بوصفه قنصلا عاما للحكومة الأنجليزيه)

الاستعداد بوديه ناصوده ضد المهدى

ثم وقف الأمر عند ذلك ولم يذكر اسم غوردون بعد ذلك التاريخ فى رسائل وزارة الخارجيه ، حتى تاريخ وصوله إلى سوثامبتون فى ٧ يناير عام ١٨٨٤ ، ولم تشر الصحف إليه لا تصريحا ولا تلميحا ، ولم تذكر الساعة ولا رجلها . وقد ذكر اسمه عرضا فى الكلام عن كارثة هكس باشا ، فقد ذكرته جريدة (پل مل) وأشارت اليه بأنه أحد المستكشفين ، حتى ولم تذكره بين الرجال الثقات فى تاريخ السودان وأحواله ، غير أن العجيب فى كل ذلك أن جريدة (پل مل) التى تجاهلته وغضت من مكانته

هى هى الصحيفة التى بعثت اسمه من مراقد النسيان ، ونشرته على كل لسان ، وأشادت بذكره وشخصيته ، وذلك أن المستر ستيد (رئيس تحريرها) استطاع أن يظفر من غوردون بحديث طويل شيق بعد وصوله إلى سوتامبتون بيوم واحد ثم نشر الحديث برمته فى اليوم التالى فى أبرز صفحة من صحيفة (پل مل)، وقدم له بمقال رئيسى اقترح فيه كاتبه أن يرسل غوردون فى التو والساعة إلى الخرطوم مزودا بأوسع السلطات ، وماعتمت صحف لندن والأقاليم أن شاركت فى تلك الصيحة المدويه ، واستمرت تردد تلك النغمه زهاء الأسبوع ودأبت فى أثنائه على الأطناب فى وصف شجاعته وخبرته وتجربته وفرط تدينه ، ولقبته بالقائد العظيم ، والسياسى الفذ ، ورجل التقوى والصلاح ، وأن له من الميزات والتجارب ما تؤهله أن ينقذ الموقف فى السودان ، وأنه لامناص من إيفاده الى الخرطوم . ولم يقتصر الأمر على الصحف وحدها ، بل عملت الحكومة البريطانية من جانبها الرسمى أيضا ، إذ أرق اللورد جرانفيل وزير الخارجية إلى السير افلن بيرنج فى صبيحة يوم ١٠ يناير عام ١٨٨٤ يكرر اقتراحه

السابق بإرسال غوردون إلى مصر ، ولكن هذا رفض الاقتراح مرة أخرى .

وبينا كانت تلك البرقيات تتبادل بين الجهات الرسمية بصفة سريه كان غوردون يزور قسيس إبريشية قرب اكستر حيث دار الحديث حول أمور روحية ، وآيات الأنجيل ، وتفسيرها على ضوء ماهو معروف عن بلدان فلسطين فى عصر الإنجيل ، ومن حيث علاقة الخالق بالمخلوق ، ولكن الحديث مع روحانيته تشقق وهبط إلى الأمور الدنيويه ، وصادف أن السير صامويل بيكر الرحالة المشهور وسلف غوردون فى حكومة السودان كان يسكن فى ضواحى تلك الناحية ، فاقترح القس على غوردون أن يزوره ، وفعلا تمت المقابلة بينهما ودار الحديث حول مقال (پل مل) ، فلزم غوردون الصمت ، ولكن عين ذلك القس اليقظة لمحت علائم الارتياح على وجهه . وروى القسيس أمرا عجيبا حدث له فى تلك الليلة بالذات إذ هب من فراشه منزعجا على صوت طرق عنيف على باب داره ، فما كاد يفتحه حتى وجد نفسه وجها لوجه مع غوردون الذى لم يزد على أن قال له : « إنك رأيتنى اليوم

أى أنك رأيت جسدى المادى الذى أريد أن أتخلص منه حتى تنطلق منه نفسى المحبوسة فيه » . ثم توارى فى حجب الظلام الدامس . ولامراء أن عقل غوردون قد أصابه مس من الاضطراب والقلق ، وفى أثناء زيارته لاكستر اجتمع بالرئيس الدينى للمقاطعه ، ودار الحديث بينهما حول السودانيين الذين اعتنقوا المسيحيه ، وماإذا كان من المستطاع أن يتسامح معهم من حيث الاحتفاظ بأكثر من زوجه ، فرد عليه الرئيس بأن ذلك مخالف لتقاليد المسيحيه . ومن الظاهر أن الإشارة العابره عن مقال بل مل التى فاه بها صامويل بيكر فى حديثه مع غوردون اقنعت الأخير بقبول العودة إلى السودان ، يتضح ذلك من رسالة بعث بها غوردون اليه فصل فيه وجهة نظره فى تلك المسأله وظاهر من لهجة الخطاب أنه متفق بينهما على نشره ، وفعلا نشرته صحيفة التيمس فى يوم ١٤ يناير ، فعاد اسمه إلى الظهور مرة أخرى ، بينما كانت البرقيات الرسمية السريه تتبادل بين الهيئات الحكوميه .

الضغط على بيرنج :

فقد أرسل اللورد جرانفيل على أثر وصول برقية السير بيرنج بالرفض — برقية أخرى إلى غلادستون أشار فيها إلى ضرورة تشديد الضغط على السير بيرنج بقبول التعاون مع غوردون ، فرد غلادستون بالموافقه ، وفى ١٥ يناير استدعى اللورد ولزلى الجنرال غوردون إلى لندن على عجل ، فلما حضر غوردون عرض عليه أن يقبل مهمة إخلاء السودان ، إلا أن هذا اعترض بأنه مرتبط بوعد مع ملك البلجيك للخدمة فى الكنغو . وفى مساء ذلك اليوم بالذات ضغط اللورد جرنفيل على بيرنج بقبول التعاون مع غوردون على أن يكون تحت إمرة بيرنج ، وأن جميع تقاريره ورسائله ترسل إلى حكومة جلالة الملكة فى غلافات مختومه ترسل على وجه السرعه . وأضاف جرانفيل أن وجود غوردون إلى جانب بيرنج لاشك أن له مزاياه ، فهو رجل محبوب من عامة الشعب الإنجليزى ، ثم ذيل برقيته بطلب رأى بيرنج وكانت هذه هى المرة الثالثه لذلك العرض ، فلم يجد بيرنج بداً من القبول ، فأجاب فى ١٦

يناير على برقية وزير الخارجية بما يأتى : —

« قد يكون غوردون أفضل رجل انتدب لهذه المهمه لو أنه يتقيد بمشكلة إخلاء السودان فحسب صونا للأرواح من الهلاك وأن عليه أن يفهم أنه مرءوس تحت رئاسة ممثل إنجلترا فى مصر يتلقى منه الأوامر ، وإننى أفضله على أى رجل آخر بشرط أن يدرك حقيقة مركزه الرسمى وأن تحدد وتوضح له المهمه التى يجب عليه تنفيذها . وإلا فإننى أعارض فى قبوله أشد المعارضه . وإذا أنفذتم أى شخص كان من المحتم أن يفهم مدى خطورة المهمه التى أمامه والمشاق التى ستواجهه »

سافر غوردون إلى بروكسل ليعتذر عن عدم قبول المنصب الذى عرضه عليه ملك البلجيك فى الكونغو ، وبعد لأى أعفاه هذا من وعده ، وفى ١٧ يناير استدعاه ولزلى من بروكسل برقياً ، وفى الثامن عشر كانت قد اتخذت الحكومة بشأنه قراراً نهائياً بإرساله إلى السودان . روى غوردون نفسه تلك القصة للقس بارنز قال : —

رواية غوردون عن مهمته في السودان :

في ظهر ذلك اليوم زارني اللورد ولزلى ، وصحبني إلى اجتماع مجلس الوزراء البريطاني ، فتركني خارج قاعة الاجتماع ، ودخل هو حيث مكث ملياً ، وعاد قائلا : أن حكومة جلالة الملكة قد قررت نهائياً إيفادك في مهمة إخلاء السودان من الحاميات المصريه لأن الحكومة البريطانيه ليس لها رغبة في إقامة حكومة به في المستقبل . فهل أنت على استعداد لقبول تلك المهمه ؟ » فلما أجبته بالإيجاب قال تعال معي إذن إلى قاعة المجلس لتتحدث إلى الوزراء أنفسهم ولما دخلت ورأيتهم سئلت هل أخبرك ولزلى بالقرار الذي صدر ، قلت نعم فقد أخبرني أنكم لاتريدون إقامة حكومة في السودان ، وأنكم تعهدون إليّ أمر سحب الحاميات المصريه المحصورة هناك ، فأمنوا على ماقلت ثم انصرفت .

هذه هي سلسلة الحوادث المترابطة التي أحاطت بآخر منصب شغله الجنرال غوردون ، ولكن الدوافع الخفيه التي حفزت الرجال المسئولين إلى اختياره ماتزال غامضه . إذ من الصعب أن

ندرك الأسباب التي حركت الحكومه للضغط على بيرنج حتى يوافق على إيفاد غوردون متغاضية عن الأخطار والملابسات التي لابد أن تنجم من إيفاد غوردون بالذات إلى الخرطوم ؛ إذ أنهم كانوا يفهمون عن عقليته وظروفه واتجاه تفكيره في جميع أدوار حياته مايدل على أنه تنقصه الصفات الضروريه والمرونة الواجبه للاضطلاع بمثل هذه المهمة الخطيره .

متناقضات :

فقد كان أولا وقبل كل شيء مغامرا جريئا ومناضلا شديد التحمس والإقدام فكان من البديهي ألا يوكل لمثله عبء الانسحاب والتقهقر المزري بالكرامة ، فضلا عن أنه لايدري في السياسية المدنية شيئا ما ، فهو متمرد على كل نظام رسمي وحكومي ، قليل الدراية والخبرة بالإدارة الحازمة ، ومواجهة المآزق الدقيقة .

وهذا هو توكل اليه مهمة يحتاج علاجها للتفكير الهادىء المتزن ، وإلى إدراك عميق لحقائق الأمور ، كما تحتاج الى تصميم صادق وبت سريع في تنفيذ خطة سياسية رسمت له واستقر عليها

الرأى . لقد كان حقا حاكم السودان العام بالأمس ، ولكنه يعود اليوم إلى مسرح عظمته السابقه مبعوثا ذليلا مهيض الجناح مستجديا مسترحما نفس القوى التى طالما وطئها بقدميه وارغم أنفها فى التراب ، فلا عجب أن تكون مهمته تحمل فى ثناياها عناصر التناقض التى تنفر منها نفسه أشد النفور . ولا نشك فى أن جميع هذه الحقائق كانت معروفة عند المسئولين عن اختياره لو أنهم كلفوا أنفسهم عناء التفكير البسيط .

وقد أدرك بيرنج ذلك بثاقب فكره فعارض بما اشتهر عنه من العناد وعلى فرض أنه لا يعلم عن غوردون إلا القليل ، فقد أوضح فى برقياته بكل جلاء النتائج التى قد يجوز أن تترتب على اختيار غوردون ، وأما عن غوردون نفسه فقد أوضح فى حديثه مع السير ساموبل بيكر ومع المستر ستيد وجهة نظره فى معالجة الأزمة السودانيه بما لا يدع مجالا للشك فى أن رأيه وسياسته تتعارضان مع وجهة نظر الحكومة البريطانية تعارضاً تاماً ، إذ لم يكن من رأيه الانسحاب من السودان مطلقاً ، بل كان

يفضل القيام بعمل جرىء حاسم ، حتى يحول دون سقوط الخرطوم فى يد المهدى ولو كان ذلك على حساب التخلى عن حاميات دارفور ومديرية خط الاستواء ، إذ أن سقوط الخرطوم فى يد المهدى يعنى ترك السودان برمته فريسة تحت أقدامه فضلا عن الأخطار التى تهدد سلامة القطر المصرى ، أما ضمان سلامة تلك البلاد ببناء سلسلة من الحصون فى جنوبها للدفاع عنها ضد قوات المهدى أمر لايسلم به العقل . هذا إلى أن العالم الإسلامى كله سيشخص قاطبة بعين الفزع إلى زحف قوات المهدى على حدود مصر .

وقد صرح للمستر ستيد إن أى سياسة ترمى إلى الانسحاب من السودان سياسة خاطئه ، وأن السياسة الحازمه تقضى بارسال رجل حازم قوى الشكيمه ـ مثل سير صامويل بيكر مثلا ـ على رأس قوة مؤلفة من الهنود والأتراك مزود بمبلغ كبير من المال ـ ٢ مليون جنيه مثلا ـ وبذلك يستطيع هذا الرجل تحطيم قوة المهدى التى سوف تتبخر من نفسها ، إذ ليس المهدى زعيما دينيا بل هو ثائر ، وأن قواته لن تستطيع الصمود أمام

قائد انجليزى حازم . وعند ذلك يستطاع إعادة احتلال كردفان ودارفور ويعاد اليهما السلاطين الذين طردهم المهدى لأنهم كانوا موالين للحكومة المصريه ، وفى النهاية تقام حكومة مدنيه منظمه تستطيع القضاء على تجارة الرقيق ـ هذه هى وجهة نظر غوردون التى نشرت وأذيعت إذاعة واسعة فى كل الصحف من يوم ٩ يناير إلى يوم ١٤ يناير ، ولذلك يبدو من العجيب أن يقترح اللورد جرنفيل ـ دون استشارة غوردون ـ أن يوفده فى مهمة هدفها إخلاء السودان ، وليس هدفها إعادة فتحه ، بل وأعجب من كل ماتقدم أن يوافق غوردون على سياسة تناقض وجهة نظره على خط مستقيم بمجرد أن يفاتحه لورد ولزلى فى ذلك .

ضغط الرأى العام والصحافة :

والحق أن مسلك الحكومة البريطانيه من الغرابة بحيث يحتاج إلى تفسير وتحليل أبعد كنها وأعمق غورا ، وقد قيل فى ذلك أن السبب الحقيقى لاختيار غوردون هو دعاية الصحف . فذكر السير بيرنج أن الحكومة البريطانيه لم تستطع الوقوف

فى سبيل تيار الدعاية الصحفيه التى أثارت الرأى العام ووجهته إلى الإلحاح على الحكومه بوجوب اختياره ، واضطرت الوزارة تحت ضغط ماسمى إذ ذاك (عبادة غوردون) أن تنصاع إلى الاستجابة للرأى العام انصياعا تاما . إلا أن هذا السبب لا ينطبق ولا يتمشى مع الحقائق التى وقعت فى تلك الآونه . ففى أوائل ديسمبر ذُكر اسم غوردون فعلا وحاول لورد جرنفيل أن ينال من بيرنج تأييده فى استخدام غوردون ، وأول ذكر بالمطالبة بتعيينه ظهر فى صحيفة البل مل فى ٩ يناير ، وفى اليوم التالى حاول جرنفيل مع بيرنج محاولته الثانيه ولكن لم تعم المطالبة باختياره جميع الصحف إلا فى اليوم الحادى عشر من نفس الشهر ، وفى ١٤ يناير أرسل جرنفيل برقية إلى غلادستون باقتراح تعيينه للمرة الثالثة ويتضح من ذلك أن لورد جرنفيل ضعف أمام حملات الصحف فلم يحاول أن يقف فى وجهها ، والحقيقة غير ذلك وهى أن الحكومة رغبت بل أرادت ألا تتجاهل الرأى العام ، إذ برهنت حوادث الشهور التاليه أنه كان فى يدها بل وكان فى قدرتها أن لا تنصاع للرأى العام وأن تصم

آذانها عن مطالبه . ولا بد أن يستنتج كل متمعن من ذلك أنه لو رفض الوزراء تعيين غوردون لما تم ذلك التعيين ، ومن هذا أن الحكومة لم تنصع لحملات الصحف بل كان العكس هو الصحيح ، إذ كانت هى السابقة إلى الفكره ومن ثم تبعتها الصحافه . وإلا فكيف نفسر عمل الحكومة البريطانيه إذ ذاك ؟ هل نفترض أن الوزراء مثل بقية الشعب قد حملتهم هم أيضا موجة الدعاية والتحمس لغوردون فاعتقدوا كما اعتقد عامة الشعب أن غوردون كان حقيقة رجل الساعه ، وأنه الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يخرجهم من الأزمة السودانيه إذا أوفد للخرطوم ؟ لاشك أن الوزراء كبقية أفراد الشعب خاضعين لمثل هذه المؤثرات الخارجيه ، ولذلك تركوا أنفسهم طوع تيار الدعاية فى الصحف دون إدراك أو تبصر ، حتى جرفهم التيار وألقى بهم على شلالات النهر .

مؤامرات الاستعماريين :

ربما كان ذلك ، ولكن هناك من الدلائل مايحمل على

الظن بأن وراء كل تلك الحركات والصيحات يدا خفيه لعبت دورا قويا . فقد ذكرنا قبلا أن أقلية قليله ذات نفوذ قوى فى الدوائر الحكوميه عارضت أشد المعارضه فى الجلاء عن السودان وتشبثت بعدم الجلاء عنه ، وهم هؤلاء المعروفون بدعاة الامبراطورية والاستعمار . يقودهم فى داخل مجلس الوزراء اللورد هارنجتون وفى خارجه لورد ولزلى وكانت سياستهم هى نفس السياسه التى رسمها الجنرال غوردون فى خطابه للسير صامويل بيكر والمستر ستيد . وكان من رأيهم الاحتفاظ بالخرطوم مهما كلف ذلك ، ولو على حساب تضحية جزء من السودان وتركه فى يد المهدى .

فرسموا الخطة وقاموا من وراء ستار بدعاية واسعة فى الصحف للضغط على الحكومة بتعيين غوردون وإيفاده للخرطوم ، فإذا حدث وأرسل غوردون للخرطوم فما الذى ينشأ عن ذلك ؟ وقد قدروا كل الاحتمالات التى قد تنشأ . فقدروا أنه يحتمل أن يعمد غوردون إلى عدم تنفيذ الخطة التى رسمتها له الحكومه ويعصى أوامرها طوعا لميوله الشخصيه .

ويحتمل كذلك أنه يورط الحكومة البريطانيه بحيث تجد نفسها آخر الأمر مضطرة اضطراراً أن تتحول عن سياسة الانسحاب إلى سياسة الهجوم ! أوليس من المحتمل أن تعتور غوردون المصاعب والمتاعب ويطبق عليه العدو ويقطع مواصلاته مع مصر ؟ فاذا حدث ذلك فكيف تستطيع الحكومة البريطانيه أن تقف مكتوفة الأيدى وتمتنع عن إرسال نجدة لإنقاذه ؟ فاذا فرض وأرسلت النجده لإنقاذه فهل من المعقول أن هذه النجده ستتحاشى الاشتباك مع قوات المهدى وتتركه حراً طليقاً دون أن تناوشه ؟ وأخيراً أليس فى إرسال غوردون لإخلاء السودان دلالة سيعقبها حتما إرسال قوة انجليزيه لإعادة فتح السودان ثم احتلاله احتلالا نهائيا ؟ وخلف كل ذلك مازال تحتجب مشكلة أخرى أشد تعقيداً من مسألة السودان وهى أن مركز انجلترا فى مصر مازال إلى تلك الساعة مركزاً غامضا غير جلى والمستقبل مثقل بأشد الغموض فمثلا كم من الزمن سيظل جيش الاحتلال فى القطر المصرى ؟ ووسط هذا الجو الحالك استطاع دعاة الاستعمار أن يجدوا فرجة من النور إذ أن أمرا واحدا على الأقل كان جليا واضحاً

وهو أنه لو عاد الانجليز إلى فتح السودان ثم احتلاله لأصبح من المستحيل بعد ذلك الجلاء عن مصر نفسها وبذا يكون الربح مضاعفاً للامبراطوريه . ولكن الحقائق والمعلومات التى بين أيدينا اليوم تدل دلالة أكيدة على أنه من التعسف فى التفسير والاستنتاج أن نفترض أن جميع هذه الأفكار التى أسلفناها قد دارت بخلد رجال الحكومة البريطانيه إذ ذاك إلا أننا لن نخلى على الأقل فردا واحدا من بينهم هو اللورد ولزلى من المسئوليه إذ أن مايعرف عنه من سعة الخبرة والوقوف على دقائق الأحوال هذا إلى معرفته الصادقة بأخلاق غوردون يجعلنا نعتقد أنه هو الرجل الوحيد الذى لم تغب عن ذهنه مغبة اختيار غوردون وما يترتب عليه . أما لورد هارنجتون فلم يكن من سرعة الادراك بحيث يستطيع أن يقدر الاحتمالات المعقدة الخطيرة التى قد تنشأ من تحرفات غوردون ولكنه مع ذلك لم يكن من البلاهة بحيث لايدرك على الأقل نتائج تلك السياسه رغم أن هذه الاحتمالات لم تكن واضحة المعالم فى ذهنه .

غير أن بعض الوقائع البارزة التي جرت إذ ذاك يجب

أن تسترعى اهتمامنا . إذ أن لورد ولزلى وهو الوسيط بين الحكومة وغوردون كان من غلاة الامبراطوريين ومن دعاة التوسع الاستعمارى ثم أن الوزراء الذين قابلهم غوردون لم يكونوا إلا جزءا يسيرا من مجلس الوزراء البريطانى برئاسة لورد هارنجتون وهم الذين قرروا إيفاده للسودان ثم أن بيرنج عارض فى إيفاد غوردون كما عارض المستر غلادستون فى أى سياسة هجومية إيجابية فى السودان ثم كان أن حددت مهمة غوردون بأنها قاصرة على تقديم تقرير عن الحالة فى السودان إلا أننا نعرف عن يقين أن غوردون طلب إلى الوزراء أن يعين حاكما عاماً للسودان وهنا يحسن بنا أن نقف لنحقق مسلك الصحف فى تلك الفترة أى فى الأسبوع الثانى من يناير هل كانت صيحتها ودعايتها حركة تلقائيه تعبر حقيقة عن الشعور العام ؟ أو أنها أثارت الرأى العام دون أن تكون لسانا معبرا عنه ؟ لا نستبعد أن تكون قد دبرت مؤامرة لم تكن الصحف فيها إلا مجرد أداة سخرتها المادة — ولو أن ذلك حدث فى سنة ١٨٨٤ وليس فى وقتنا — ومع ذلك فما زالت بعض الحقائق غامضه

فمثلا نحن نجهل تماما ماهى الروابط المستوره التى كانت تربط المستر ستيد بفريق الاستعماريين من الوزراء ورجال الحكومه ؟

وصف سفر غوردون :

ويجدر بنا أن نسرد الأحداث التى تلاحقت بعد ذلك إذ حدث أنه بعد بضع ساعات من مقابلة غوردون للوزراء كان قد برح انجلترا إلى غير رجعه ففى الساعة الثامنة مساء من ذلك اليوم اجتمع لفيف من كبار المودعين بمحطة فيكتوريا وجاء غوردون يصحبه نائبه فى القيادة الكرنل ستيوارت إلى رصيف المحطة واشترى لورد جرانفيل تذاكر السفر وفتح دوق كمبردج باب عربة القطار فدخله غوردون ثم جاء ولزلى يحمل صرا به مائتى جنيها ذهبا تبرع بها الأصدقاء لمواجهة مصروفات الرحلة وسلمها إلى غوردون من شباك العربة ثم تحرك القطار وكان آخر ماسمع من غوردون حديث قصير بينه وبين لورد ولزلى ثم اختفى القطار وسط الظلام وهكذا قام ولزلى بترتيب كل شىء ولم يترك أمراً للصدفة وقام بنفسه على تنفيذه .

وقبل أن يصل غوردون وصحبه إلى القاهره عدلت مهمته

بحيث صرف النظر عن مسألة التقرير إذ أرسل جرنفيل برقية إلى بيرنج يقول فيها :

« إن غوردون يقترح أن يعلن فى مصر أنه فى طريقه إلى الخرطوم لينظم الحالة فى السودان على أساس مصالح أهلها » ولم يذكر شيء عن تقديم التقرير وبعد أيام قليله أبرق غوردون إلى جرانفيل يطلب تعيينه حاكما عاما على السودان وأن مهمته هى سحب الحاميات المصريه منه وإعادة سلطته إلى الحكم كما كانوا سابقا ـ وسرعان ما أخطر جرنفيل السير بيرنج بأن يقترح على الحكومة المصريه تعيين غوردون فى ذلك المنصب الذى طلبه وبذلك تغيرت طبيعة المهمة من مجرد تقديم تقرير بل تحولت إلى منصب حاكم عام وأصبحت غير قاصرة على إخلاء السودان بل إعادة السلاطين القدامى إلى سلطانهم ليحلوا محل الحكومة المصريه فى حكم تلك البلاد .

واستقبل غوردون رغم مشاكله الماضية فى مصر استقبالا حافلا وعين فوراً حاكما عاما للسودان ومنح أوسع السلطات وقبيل سفره جنوبا لعبت الصدفه دورا عجيبا إذ حدث أن

تقابل فجأة مع عدوه القديم الزبير باشا فى حجرة أحد الوزراء فلما وقع نظره عليه استولى عليه شعور مبهم و بين لحظة وأخرى تحول شعوره من عداء له إلى ميل إليه وتبددت شكوكه القديمه فيه وحل محلها ثقة تامة به ـ ثبت هـــذا من خطاب لبعض أصدقائه ـ وغنى عن البيان أن الزبير كان من كبار تجار الرقيق إن لم يكن أكبرهم جميعا ومن الطبيعى أنه يكره غوردون كراهية شديده وخاصة بعد إعدام سليمان ابنـه على يد جيسى ومن الغريب أن غوردون كان قد أشار على الحكومة المصريه قبيل وصوله بابعاد الزبير إلى قبرص ولكن سرعان ما امحت تلك الشكوك فى الزبير لمجرد هذه المقابله إذ اقترح غوردون أن يلحق به الزبير فى الخرطوم لأن وجوده سيشل من حركة المهدى لأنه منافس قوى ولم يقف عند ذلك بل أشار بوجوب إحلال الزبير محله فى حكومة السودان عنـد إتمام انسحاب الحاميات منه ولكن بيرنج لايبرم شيئا على أساس شعور أو إحساس عابر إذ كان من طبيعته التفكير والاستشاره قبل أن يقرر شيئا فى تلك المسألة الهامة . وفعلا أهمل اقتراح غوردون

الزبير باشا

وفكر أن يحل محله أحد سلاطين دارفور هو الأمير عبد الشكور وريث عرش سلطنة دارفور الذى كان يعيش فى القاهره عيشة عزلة واعتكاف فلما استقر عليه رأى بيرنج لم يهتد اليه إلا بعد جهد جهيد ومن ثم أمرته الحكومة المصريه بالاستعداد للسفر مع غوردون وسلمت اليه مبلغ ألفين من الجنيهات وخلع عليه حلة رسمية من ركنه وأنعمت عليه بأكبر عدد من النياشين واستعجلته فى السفر لتوه وساعته فلما طلب الرجل مهلة ليجهز للسفر لم يمهل وأخطر أن يلحق بالقطار الذى زيدت عرباته لتتسع لحاشيته ونسائه وأغراضه الكثيره وفى حمى السفر كاد أن ينسى اصطحاب حلته الرسميه ولم تقف متاعبه عند هذا الحد إذ عندما انتقل الجميع إلى الباخرة النيليه عامله غوردون معاملة قاسيه وأغلظ له فى القول حتى إذا ماوصل مدينة دنقله صمم على أن لا يواصل السفر أبدا ولن ينقل رجلا من أخرى مهما كانت الظروف والأحوال وهناك قضى بضعة شهور عاد بعدها إلى القاهرة هو وجميع قافلته.

اقتحام بتقديم الحكومة البريطانية :

ورغم الصدمة التى أصابت غوردون من أثر ذلك الحادث

إلا أنه كان فى أتم ما يكون من الحبور والسرور فقد نال أخيرا ما كان يتمناه اذ اعترف له مواطنوه بمقدرته وكفاءته وقدروه حق قدره وشادوا بذكره ورفعوه الى مرتبة عظماء الرجال وأكثر من ذلك أنهم أرغموا الحكومة البريطانيه على تقديره فوكلت اليه مهمة من أخطر المهمات التى تشبع أقصى أطماعه وتتيح له سبيل الخلود ولا بد أن يكون وازعه الدينى قد همس فى أذنه بأن الله لم يخلقه عبثا وإنما خلقه ليتم على يديه هذا الأمر العظيم الذى يجرى فى تلك الآونة الرهيبه ولا مراء أنه استولت على ذهنه وتفكيره اتجاهات وخطط رسمتها مخيلته للتغلب على المهدى جعلت قوة هذا الثائر تتضاءل أمامها فأسكرته خيالاته كما أسكرته أقداح البراندى والصودا التى أسرف فى تناولها .

غوردون والشاعر الفرنسى بودلير :

فاذا ما تملكه الشراب سارع إلى تسطير وحى الكأس فى برقيات لاحصر لها أغرق بها السير اثلن بيرنج حتى منبت شعره ولعل غوردون كان من أتباع الشاعر بودلير — دون أن يدرى — إذ تغنى هذا الشاعر بالخمر قال « واصل الغبوق بالصبوح وانتهز

لذة النشوة انتهازا حتى تنسى هموم الزمن التى تثقل كاهلك وتعجل بك إلى الشيخوخة التى تنقض ظهرك حتى توردك رمسك » وقد بلغ به الخيال مبلغ الخبل حتى أنه فكر أن يفاجىء المهدى بزيارة فى عقر داره منفردا كما فعل ذلك مع سليمان بن الزبير وما عتم أن وصل إلى بربر وهنا حدثت الطامة الكبرى إذ خطب جمعا من مشايخ القبائل وصرح دون تورية أو ايهام أنه انما أتى الى السودان كيما يسحب الحاميات المصرية منه فما كاد ينتشر هذا الخبر حتى أحدث دويا هائلا كانت نتائجه وبالا وشرا اذ انشق على الحكومة المصريه زعماء القبائل التى ظلت موالية لها حتى ذلك التاريخ اذ عندما أيقنوا أنه لافائدة ترجى من معونة مصر وأنها تخلت عنهم حولوا وجوههم نحو الشمس المشرقه ـ شمس المهدى . ومع ذلك لم تظهر آثار خطبته مباشرة بل كان يستقبل فى كل مكان ينزل فيه بالترحاب والاكبار حتى اذا وصل الى الخرطوم أعد له فيها استقبال حافل كان من أثره أن علت الروح المعنويه بين جنود الحاميه وعاود الأمل أهل المدينة بل أهل البلاد جميعا فانحسر عنهم الفزع والخوف ولاقوه لقاء المخلص

ومبعوث العناية الألهية لهم . ووثقوا أنه لامحل لمخاوفهم مادامو ا تحت عناية الباشا الانجليزى وفى رعايته .

أثر سياسته فى السودان وانجلترا

وما أن استقر به المقام حتى بدأ لتوه بتنفيذ عدد من الاوامر دلت على بداية صفحة جديدة لعهد سعيد فاجل جباية الضرائب وسداد الديون واخلى السجون من نزلائها وحطم أدوات التعذيب وختم كل ذلك باعلان ضخم صرح فيه بأنه لن يحارب تجارة الرقيق بل يبيحها . وقد كان غوردون عاجزا كل العجز عن محاربة الرقيق وأدرك أن تلك التجارة ستعود بطبيعتها بعد اخلاء السودان فصمم على أن يستفيد من اباحتها ويكسب الى جانبه فريقا قويا . وقد قوبل ذلك الاعلان فى الخرطوم بمنتهى الارتياح والسرور ولكن كان لهذا العمل صدى عكسى فى انجلترا اذ أحدث استياء شديدا وقلقا شاملا فى الرأى العام واحتجت على ذلك جمعية مقاومة الرقيق وقامت بحركة تهديديه لولا أن الحكومة صمدت لهذه المعارضة رغم ان غالبية الرأى العام كانت تميل الى غوردون وتثق بان تصرفاته لاتصدر الا عن

دوافع ضرورية ومعقوله : وهو فى وسط كل هذه الظروف ممتلىء نشاطا وحبورا حتى أنه لم ينس أنه يفضى الى أخته (اوجستا) بان الله شمله بعنايته وأنه حتم على جنوده (المسلمين) أن يؤدوا الفرائض فى أوقاتها وأنه أمر بأن تكتب آية من الآيات على لوحة كبيرة وتعلق فى مكان ظاهر فى قاعة الاستقبال بسراى الحاكم .

وكأنما شعر بالاستئناس يغمره عندما عاد الى مسكنه القديم وتفقد أركانه ففارقته الوحشة التى كانت قد استولت عليه وزاد توالى الأيام سروره وحبوره وفعلت به حرارة شمس الجنوب وأشعتها الباهرة وسط ضجيج المدينة التى تعج بسكانها السود وحاميتها العسكريه فعل الخمر وسيطر ذلك الجو على مشاعره ودعم ذلك احساسه بعودة نفوذه وسلطانه القديم اليه فتضاءلت فى مخيلته ذكريات انجلترا وبدت له من بعيد كأنها شبح من الاشباح كما لاح له بيرنج باترانه وأناته رجلا متعفتا مشاكسا حتى كأنما انقطع ما بينه وبين العالم — وأما هو فغردون باشا حاكم السودان العام — حاكم السودانيين شعبه المحبب اليه فهو مسئول أمام الله وأمام السودانيين عن سلامتهم ورفاهيتهم وليس أمام أحد آخر .

فهل يعقل أن يسلمهم الى يد المهدى الثائر دون أن يضرب فى سبيل تحريرهم ولو ضربة واحدة للدفاع عنهم . إنه لن يتخلى عنهم أبدا إذ لم يأت الى هذه البقاع الا ليحول بينهم وبين المهدى .

غوردون يتباهل مع ربه ويقرر البقاء

فلتنصرف الحكومة البريطانية بما تشاء عن الانسحاب فان لرأيه فى ناحية أخرى غير ماتفكر فيه حكومة جلالة الملكة . فاغرق السير بيرنج بسيل من البرقيات حتى أصبح هذا لايجيب جوابا . ان الرجل الذى فارق انجلترا منذ ثلاثين يوما بمهمة كتابة تقرير عن أجدى الطرق لسحب القوات المصريه سالمة من أرجاء السودان » أصبح اليوم يتحدث علنا عن « سحق قوات المهدى » على يد جيش هندى بريطانى والحق أن بيرنج أخذته الحيرة فى أمر ذلك الرجل الذى قلب الاوضاع واتخذ لنفسه خطة تناقض ما اتفق عليه وما كاد غوردون يقع تحت تأثير الظروف المحليه المحيطة به حتى بدأ ينفذ سياسته التى شرحها فى حديثه الى مستر ستيد الذى نشر فى (بل مل) والواقع أن تلك السياسة الايجابية لم تكن بعيدة عن تفكير الحكومة

البريطانية نفسها لأن الحالة تحرجت فجأة فى السودان الشرقى تحرجا خشى معه على الخرطوم ذاتها فقد حدث أن الجنرال بيكر (أخى السير صمويل بيكر) خرج من سواكن لينقذ حاميتى سنكات وطوكر فهاجم قوات عثمان دجنه ولكنه انهزم هزيمة منكرة وسقطت المدينتين فى يد قوات المهدى وما كادت أنباء تلك الهزيمة تذاع حتى علت الصيحات من كل جانب فى انجلترا بوجوب الأخذ بالثأر وقدم لورد ولزلى مذكرة لمجلس الوزراء بوجوب اعلان ضم السودان الى الممتلكات البريطانيه وجرت مناقشة فى مجلس العموم طالب فيها الاعضاء الحكومه — والاحرار من بينهم — بوجوب الأخذ بالثأر والقيام بعمل حربى وفعلا أرسلت السير جراهام على رأس جيش قوى الى ميناء سواكن وما أن وصل اليها حتى تقدم وهزم الدراويش فى معركتى التب وتاماى وأصبح جليا للعالم أجمع أن الحكومة البريطانية بدأت تتبع سياسة ايجابيه فى السودان بالتدخل الفعلى والقوات المسلحة ودلت بوادر الاحوال أن فريق المستعمرين ودعاة الامبراطوريه قد فازوا على بقية الوزاره بتنفيذ خطتهم

السياسيه فى التدخل الذى سينتهى حتما الى التوسع فى الاستعمار بضم أملاك جديدة إلى التاج .

الحكومة البريطانية تتردد فى سياستها

إن إرسال السير جراهام على رأس جيش بريطانى هندى إلى سواكن عمل يتفق تمام الاتفاق مع ماطلبه غوردون « لسحق قوات المهدى » وقد أكد للسير بيرنج غير مرة أنه ليس من العسير بل أنه من اليسير سحق تلك القوات وأنه يعز فى نفسه ويؤلمها أشد الألم أن يستشعر العجز عن القيام بأى عمل إيجابى لإنقاذ السودانيين الذين تتسلط عليهم شرذمة من الدراويش . فليوفد إليه الزبير باشا إذ وجود هذه الشخصية سيبدل الحالة فى السودان فوراً لأن السلاطين الأصليين فى البلاد لا يمكن الاعتماد عليهم فليحل محلهم الزبير ويمكن بعد القضاء على المهدى أن يعين الزبير أميراً على السودان شأنه فى ذلك شأن أمير الافغان أى تحت سيادة انجلترا . ويبدو أن هذه الخطة مستطاعة التنفيذ من الناحية العمليه ولكن بيرنج رأى أن هذه الخطه تخالف وتتعارض مع الخطة الأصلية والسياسة المرسومه للانسحاب من السودان .

فهل ترى تعدل الحكومة الانجليزيه عن مشروعها وتعين الزبير باشا وترسل مدداً لجراهام للقضاء على المهدى ؟ الحق أن الحكومة البريطانية وقفت موقف التردد الشديد وخاصة فى مسألة الزبير بسبب رأيين متعارضين فمن ناحية وافق بيرنج على إيفاده ولكن الحكومة كانت تخشى الرأى العام الذى كان يعتقد أن وجود مثل هذا الرجل فى السودان كان خطراً لأنه أكبر تجار الرقيق قاطبة كما وصفه غوردون قبلا حتى لوث سمعته فى نظر الرأى العام البريطانى . وبينما كانت الوزارة فى حيرة من أمرها اتخذ غوردون خطوة خاصه إذ صرح بضرورة إيفاد الزبير فى حديث له مع مكاتب التيمس فى الخرطوم ظنا منه أن هذا التصريح إذا نشر على الرأى العام فى انجلترا قد يرغم الحكومة على الموافقه ولكنه أخطأ التقدير وجاءت النتيجة ضد مارمى إليه . إذ بمجرد أن نشر هذا التصريح اجتاحت الرأى العام موجة من الفزع بسبب كراهيته للزبير تاجر الرقيق ثم قامت جمعية حماية الرقيق بحملة دعاية واسعة النطاق ضد هذا التعيين جعلت مجلس العموم يقف موقف المعارضة من الحكومة

وبذلك اضطرت الوزارة أمام الأغلبية العظمى المعارضه فى المجلس أن تعلن قرارها ببقاء الزبير فى مصر فأصيب الاستعماريون بصدمة قويه جعلت موجة سياستهم تنحسر بل وتتلاشى عندما اتخذت الحكومة قرارها التالى عقب ذلك وهو سحب قوات جراهام من سواكن وتم ذلك فعلا .

انهيار خط غوردون

حدثت هذه الأزمه فى النصف الأول من شهر مارس وفى نهايته أصبح من الواضح أن مركز غوردون قد طرأ عليه تغيير وتحول كلى . إذ وجد آماله فى إيفاد الزبير وفى تحطيم قوة المهدى بواسطة جيش هندى بريطانى قد انهارت انهياراً تاما .

وزاد الموقف سوءا تحرج الحالة الحربية فى السودان الشرقى مما كان له أوخم العواقب وذلك أن جراهام لم يقض على قوات المهدى القضاء المبرم ويشتت جموعهم رغم انتصاره عليهم فاستفحل أمر الدراويش وقويت شوكتهم فلما انسحبت القوات البريطانيه من سواكن اعتقد هؤلاء أن البريطانيين انهزموا وأن قواتهم أصبحت لا يعتد بها . وما عتم هذا الحادث حتى أدى إلى نتائج

خطيرة إذ أن القبائل الموالية لمصر والضاربة شمال الخرطوم وفى شمالها الشرقى خرجت عن ترددها وألقت بنفسها فى أحضان المهدى وبذلك أصبحت العاصمة السودانيه فى خطر محقق فقطعت المواصلات بينها وبين مصر وأصبح إخلاؤها من حاميتها ومن أهلها الموالين للحكومه أمرا مستحيلا وانهارت كل الخطه التى رسمها غوردون من أساسها وأسوأ من ذلك كله أن غوردون أضحى محوطاً بالأعداء من كل جانب ولم ينفذ شيئا من الخطة الأصليه وهى سحب الحامية من الخرطوم . على أن الاتصال بينه وبين مصر لم ينقطع انقطاعا تاما بل ظل بين وقت وآخر بواسطة بعض الجوابين والرسل من الأهالى أو بواسطة البواخر النيلية المسلحه .

وبلغت الحالة درجة شديده من الحرج حتى اضطر بيرنج أن يبرق إلى وزير الخارجية يستفسره عن أجدى الطرق لإنقاذ غوردون والكرنل ستيوارت نائبه فى القياده ولكن الحقيقة أن حالة المدينه لم تكن من الخطورة بالوصف الذى وصفه بها الكرنل كتلوجن بعد كارثة هكس باشا إذ كان غوردون يرى

أنه يستطيع الصمود للحصار عدة شهور فنشط لحفر الخنادق وبث الألغام ومد أسوار الأسلاك الشائكة وأما المدينه فكان بها من المؤن مايكفيها ثمانية شهور غير مافى مخازنها من السلاح والذخيره

غوردون يستعد للحصار

وبها حامية قوامها ثمانية آلاف جندى هذا إلى وجود عدد من البواخر المدرعه المسلحة بالمدافع . واطمأن غوردون لذلك واعتقد — أنه بفضل الله ومعونته — يستطيع الثبات عدة شهور ولا داعى لليأس غير أن هذا الاغتباط الذى كان يبدو على وجهه كانت تعتريه وتختفى وراءه شكوك وهموم جعلته فريسة للحيرة والريب كما يبدو ذلك من إحدى رسائله إذ يقول « إما أننى أعتقد فى أن الله يدبر الأمور باللطف والرحمه وإما أننى لن أعتقد بوجوده لأنه لايوجد وسط بين الاعتقاد به والكفر بوجوده لقد رميت بنفسى فى المآزق والمصاعب ! ثم ماذا جنيت من وراء كل ذلك ؟ إننى أعتقد أن مطامعى الاشعبيه هى التى طوحت بى إلى ركوب تلك المخاطر » وفى أخرى يعاوده إيمانه فيقول « إن وعد الله لعباده لاينصرف إلى أنه يحقق لهم

مطامعهم الدنيويه ، وبذلك إذا حلت بنا الكوارث هنا فأعتقد أن الله تعالى يصرف الأمور بحكمته وسابق وعده لعباده » وفى أخرى « إننى لاأملك لنفسى نفعاً ولا ضراً وما بى من نعمة فمن الله ولقد ارتكبت فى حياتى كثيراً من المعاصى لأننى إنسان فاذا جوزيت عليها فذلك هو الجزاء الأوفى » .

وما عتمت أنباء الورطة التى تحيط بغوردون أن وصلت إلى انجلترا فسرت فى الرأى العام موجة من القلق على مصيره وكانت الملكة فكتوريا فى طليعة الذين أحسوا بذلك إحساساً شديدا وعبروا عن هذا القلق أصدق تعبير إذ وجهت رسالة إلى اللورد هارنجتون قالت فيها « لقد روعنى ماعلمته عن الخطر المحدق بغوردون . إن الواجب الأول الملقى على عاتقك هو إنقاذه وعليك تقع المسئولية العظمى » والحق إن الملكة قد عبرت تعبيراً صادقاً عن شعور الرأى العام وسبقته الى التصريح به .

الرأى العام أيضاً

وما أن حل شهر ابريل حتى قطعت الأسلاك البرقية بين

الشمال والجنوب ولم تصل مصر أية أخبار عن غوردون سوى بعض الشائعات والتكهنات عن وقوع بعض الكوارث وانسدل حجاب كثيف على الخرطوم بمن فيها سترها عن أنظار العالم الخارجي . وما كاد الجمهور يدرك حرج موقف غوردون حتى انهالت الرسائل على الصحف انهيالا وحبرت المقالات الافتتاحية فيها . وكلها حض على الاكتتاب فى انجلترا لإنقاذ غوردون .

وفى شهر مايو بلغ قلق الرأى العام نقطة السمت عندما عرف أن الحكومة لم تتخذ أية خطوة فى سبيل إنقاذ غوردون فتوالت الاجتماعات والاحتجاجات على الحكومة إظهارا للسخط على سياستها وجمودها . ومن ذلك اجتماع فى قاعة سنت جيمس وفى التاسع منه عقد اجتماع أضخم فى حديقة هايد بارك وفى الحادى عشر عقد اجتماع صاخب فى منشستر . ووجهت إحدى كرائم السيدات النبيلات خطابا يفيض سخطا وغضبا الى صحيفة التيمز دعت فيه إلى فتح اكتتاب عام جديد بل واقترح أحدهم على صفحات الجرائد أن يخصص هذا المال لرشوة القبائل الموالية للمهدى حتى يمكن إنقاذ غوردون وإعادته سالما . كما

اقترح أحد القساوسة إقامة صلاة عامة فى جميع كنائس انجلترا من أجل سلامة غوردون ولكن جميع هذه الجهود ذهبت عبثافقد ظل غوردون كما هو وظلت الحكومةلاتحرك ساكنا . وأخيرا اقترح بعض أعضاء مجلس العموم لوم الحكومة البريطانيه ففشلوا . والحق أن الموقف إذ ذاك أصبح يدعو إلى الدهشه لما فيه من التناقض . إذ أن نفس الهيئه (الوزاره) التى أصلحت من أشرعتها لتجارى ريح الرأى العام فى إيفاد غوردون هى نفس الهيئة التى صمدت وسط تلك العاصفه أمام الرأى العام الذى اتضح له أن الحكومة قد بيتت العزم على سلوك خطة قررتها ورسمت لنفسها سياسة فى المسألة السودانيه لن تحيد عنها قيد أنملة فما هو التفسير المعقول لذلك التحول ؟ التفسير سهل ويسير إذ أن غلادستون رئيس الوزاره قد تدخل شخصيا وأمسك بيديه زمام الموقف .

مستر غلادستون ينفرد بالعمل فى مسألة غوردون

ان ذلك السياسى العتيق كان قد وصل فى حياته السياسية الحافلة الى المرحلة قبل الاخيره فقد كان يوما ما موضع آمال

حزب المحافظين ولكنه بعد أن قضى حقبة طويلة فى صفوفهم انسلخ عنهم وتحول تحولا تاما فأصبح بطل الديمقراطية والحرية المناضل عنها وكان عندئذ قد وصل الى اوج قوته اذ انفسح له الطريق بهلاك أكبر منافسيه (دزرائيلى) وانفرد هو بتبجيل مواطنيه الذين أولوه ثقتهم وخصوه باعجابهم وهتافاتهم الى درجة بلغت حد التقديس . ومع ذلك كان فى طباعه واخلاقه وهو فى اوج شهرته مادعا شانئيه للحط من قدره والحض على كراهيته واستطاعوا أن يثيروا حوله جوا من العداء والبغضاء . والحقيقة فى كل ذلك أنه كانت تكمن فى طبيعته متناقضات تحمل كلا المعجبين به والناقمين عليه الى الدفاع عنه أو الى القدح فيه كما كان من السهل أن يشيد المجذون له بصفات الاستقامة والشرف والتدين والفضيلة وأنها مثله العليا التى أوقف الرجل حياته لتحقيقها ليس فى حياته الخاصة فحسب بل وتطبيقها فى شئون السياسة والدولة وأنه الرجل الذى يحفزه الى إحقاق الحق والعدالة احساس طبيعى يفيض به قلب طاهر وعزم متوثب . ورغم تلك الصفات التى سحرت أنصاره فقد كان من اليسير على

خصومه أن يرموه بانه منافق وخطيب جماهير همه طلب الشهرة والتصفيق وأنه رجل خطر بسبب لؤمه وخبث طبعه واصطناعه الناس والأشياء فى سبيل أغراضه الشخصيه وقد يكون المدح من جانب والقدح من جانب راجع إلى التحيز أو إلى التعامى هو التفسير الوحيد فى رجل لم ينقسم الناس فى شأنه مثل ما انقسموا فى تقدير غلادستون . والحق أن أخلاق هذا الرجل كانت مجموعة عناصر من المتناقضات تجعل ألد أعدائه يستطيع أن يعدد نقائصه بنفس السهولة التى يعدد بها خصاؤه مآثره . فما هو إذن التفسير لتلك الظاهره ؟ إن العالم لا يقوم على الأوهام بل يقوم على تقصى الحقائق الواقعه . فهل كان غلادستون يحمل بين جنبيه نفساً غامضه ؟ وهل كانت عظمته تنبع من صميم المتناقضات التى تكون أخلاقه ؟ أننا اليوم أشد عجزا فى تفسير كنهه من خصومه الذين عاصروه منذ خمسين عاما .

تحليل شخصية غلادستون

لقد كان الكلام مطية وجوده وكنه كيانه فاذا نطق انثالت خطبه مليئة بالأحاجى والألغاز فى جمل طويلة ملتويه معقدة ترزح

تحت أعباء من النعوت تغشى الأذهان وتعثر بها حتى يضل فيها الفكر كأنها السحب الثقال ترسل الغيث كما تنزل الصواعق والبروق . أفلا يحق لنا بعد ذلك أن نقول عنه أنه صاحب خلق معقد لأنه غامض الذهن مركب الضمير ومع هذا إذا رجعنا إلى كلامه لحظنا فيه روحا من السذاجة التي تقرب من البله وتناقض رأينا فيه فمثلا كان يعتقد اعتقادا جازما بالنظام النيابي على إطلاقه دون أن يعدل فيه رأيه طول حياته . أما آراؤه في الدين فلم تكن غير مجاراة لمعتقدات العصر وترديدا لها دون نقد أو تمييز هذا إلى تجرده التام عن روح الدعابة والفكاهة وإذا قورنت آراؤه بآراء دزرائيلي عن الحياة شعرنا بأن آراء غلادستون لا تعدو أن تكون هراء طفل كبير فهو أشبه مايكون بالبركان كله نار وحمم وضياء ساطع فاذا دققت النظر في فوهته وجدت فيه بقعة سوداء عمياء في وسطه .

ولم تكن دوافع غلادستون وأطماعه كلها منصرفة إلى تصيد الشهرة واجتذاب الجماهير وهذه حقيقة اعترف بها خصومه عند الكلام عن أخلاقه ولا أدل على ذلك من موقفه أزاء غوردون

فلقد عارض فى إيفاده للسودان ولم يوافق على تعيينه إلا موافقة جزئيه عندما صورح بأن المهمة لاتعدو أن تكون وضع تقرير عن الحالة هناك . وماكاد غوردون يبرح إنجلترا حتى بدأت الحوادث تترى وسياسة الحكومة أى فريق الاستعماريين بها — تتطور تحت ضغط الظروف الجديده تطورا يكاد يكون طبيعيا حتى ينتهى إلى إعادة فتح السودان وضم مصر . تلك هى السياسة التى بيتها أنصار الامبراطوريه ولكن غلادستون بدأ يتنبه إلى حقيقة الأحوال والظروف وخاصة بعد النصر الدامى الذى ناله السير جراهام وعندها فطن إلى الطريق التى زُج به فيها وإلى نهايتها المبيته إذ أن الفرصة لم تكن قد أفلتت منه ولم يكن الوقت قد أزف على النكوص عن هذه السياسه . فكان أن صمم وألح فى وجوب انسحاب القوات البريطانيه من السودان الشرقى فأفسد بذلك على الاستعماريين خطتهم إذ كانوا يظنون أنهم يستطيعون أن يتغافلوا هذا الأسد العتيق وخيل اليهم أنه آوى إلى عرينه واستغرق فى سباته من فرط الشيخوخه ولكنه مالبث أن بغتهم وخرج عليهم فجأة يملأ الدنيا زئيراً مدويا أصم أذانهم

وأرسل الرعدة الى قلوبهم . ﴿ تولى غلادستون رياسة الوزارة البريطانية أربع مرات بعدأن تولى عدة مناصب إداريةووزاريه قبل تولى الرياسة وانضم فى بداية حياته السياسيه الى حزب المحافظين ثم تحول عنه الى حزب الاحرار وظل كذلك حتى قدم استقالته واعتزل السياسة عام ١٨٩٤ . وكان غلادستون خطيبا مفوها مطيلا متمكنا من الكلام قوى الحجة عظيم الشخصية ذا أثر فعال فى الجماهير التى تستمع له ولم يعتل منبر مجلس العموم رجل اجتمعت له من الصفات والهيمنة مثل ما اجتمع لغلادستون . وكان محور سياسته يدور حول الكف عن التدخل فى السياسة الخارجيه وأما فى السياسة الداخلية فجاهد فى أن يفوز باقرار مشروعين هما الهوم رول لارلندا (الاستقلال الذاتى) ثم اصلاح قانون الانتخاب ولكنه لم ينجح فى سياسته الداخلية الا نجاحا جزئيا رغم جهوده الجباره واختلف أخيرا مع مجلس اللوردات ومايزال هذا المجلس عقبة كأداء فى اقرار كثير من القوانين . وأما سياسته الخارجيه فقد اضطرته الاحداث الدولية الى التدخل الفعلى فى شئون الدول الاخرى ومر بأزمات خطيرة

كاد فيها يحارب روسيا القيصريه هذا الى ضرب الاسكندريه ثم اخلاء السودان وسحب القوات الانكليزيه منه وحدث كل ذلك فى وزارته الثانية بين ١٨٨٠ - ١٨٨٥ هذا الى انسحابه من الأفغان وجنوب افريقيا . ولم يعتزل السياسه الا بسبب اعتلال صحته وضعف بصره بعد أن قضى زهاء ستين عاما فى الخدمات العامة وقد اشتهر بعدائه الشديد لدزرائيلى الذى توفى قبله كما اشتهر بخطبه المريعه ضد تركيا فى حوادث المذابح البلغاريه والارمنيه وقد اطلق عليه الشعب الانكليزى لقب « الشيخ الجليل » تقديرا له واحتراما لمكانته فى نفسه

لقد كانت لعبة الاستعماريين تدور حول مدينة الخرطوم . إنها فى خطر . إن غوردون فى خطر . لابد من انقاذه . وفى سبيل إنقاذه لامناص من توجيه جيش من البريطانيين والهنود ليتولى إعادته سالما غانما . إلا أن غلادستون فطن الى تدبيرهم وحرص على ألا يخدع مرة ثانية فلما تعالت الصيحات من كل جانب لانقاذ غوردون وضج الرأى العام وفاضت أنهر الصحف وعم القلق كل الناس حتى غمر ملكة انجلترا نفسها

فصرحت بان شرف بريطانيا مرتبط بمصير غوردون . أصم غلادستون أذنيه ووقف صامداً وسط تلك العاصفة لا يتزحزح ولا يتحرك . ولعله قد قارن فى ضميره بين إنقاذ بطل مسيحى من براثن القبائل المتوحشة وبين التضحيات الهائلة التى يجب أن تبذل فى سبيل إنقاذه من قتل وقتال وفناء ونكبات النصر والهزيمة وسقوط الآلاف من الأبرياء وقسوة التسلط العسكرى واستعباد أمة بأكملها .

فلم يكن غزو السودان فى رأيه إلا حرب فتح واستعمار ضد شعب يحارب فى سبيل حريته وخلاصه فقد صرح قائلا « نعم إن ذلك الشعب يحارب فى سبيل الحرية وأن له الحق المطلق فى ذلك النضال » . فأنت ترى أن غلادستون كان من السذاجة المتناهية بحيث كان يعتقد فى «الحرية» ﴿ من العجيب أن يتبع غلادستون فى سياسته الداخلية والخارجية مادعاه بسياسة الأحرار فى الدفاع عن الحرية فقد جاهد حقا فى تحرير إرلنده ولكنه فى السياسة الخارجية أزاء مصر والسودان استطاع أن يكيف سياسته بحيث تنطبق عليهما فاعتبر حركة عرابى فى مصر

وهى حركه سلمية وطنية تقدمية تنطبق انطباقا تاما على مبادئ حزب الأحرار وتستحق التعضيد من جانبهم اعتبرها رغم كل ذلك بأنها حركة دينية ذميمة هدامة ولذلك كان لزاما على الأحرار إخمادها والقضاء عليها . وعندما واجهته ثورة المهدى فى السودان اعتبرها حركة وطنية تهدف إلى الحرية والاستقلال وبذلك لايجب مقاومتها . مع أن الحقيقة التى وراء ذلك هى أن فتح مصر كان ربحا وغنيمة ذسمة لم تتكلف شيئا ما وأما السودان فيجب أن يترك فريسة للفوضى والظلم لأن إخماد ثورة المهدى ستكلف بريطانيا أموالا طائلة ودماء غزيرة لاتستطيع أن يتحمل مسئوليتها والطريف أن نتيجة تطبيق مبادىء الأحرار على وجهين كان سببا فى تحول الرأى العام عن حزب الأحرار وسقوط وزارة غلادستون الثانية ﴾ ويتساءل ما إذا كان حقاً مايقال عن أن غوردون فى خطر وأنه لابد من إرسال نجدة لإنقاذه بسبب انقطاع أخباره وانقطاع المواصلات بينه وبين الخرطوم ثم يرى أن عدم وصول أخبار عن غوردون لايعنى أن الحالة سيئة بل بالعكس فان الأخبار القليلة التى تسربت إلى مصر من

الجنرال غوردون نفسه تدل على أنه يستطيع الصمود للحصار عدة أشهر أخرى وهكذا مابرح تفكيره ينسج نسيجا من الاحتمالات والاقتراحات ويحلل الفوارق الدقيقة فآنا نرى أن الجنرال غوردون ليس محصوراً بمعنى الكلمة وإنما هو محوط فقط وأن واجب الحكومة ألا تتخذ إجراء عاجلا بل لابد لها من التمحيص والتفكير فاذا انتهت بعده إلى قرار مافلا بد أن يكون قائماً على أسباب صحيحة أكيدة بعيدة عن الحدس والتخمين .

وثمة أمر آخر ناقشه غلادستون فتساءل عن السبب الذى يمنع غوردون عن الخروج من الخرطوم مادامت المواصلات مازال مفتوحة أمامه مع مصر ؟ قد يجوز أنه لا يستطيع الإنسحاب مع الحاميه المصرية ! ولكن ماذا يهم فلينسحب بمفرده مادامت النجدة المزمع إرسالها ستكون مهمتها الوحيده إنقاذ شخص غوردون لا أكثر ولا أقل ولكن غوردون لم ينتهز عمدا فرصة سلامة مواصلاته لينسحب بل رفض ذلك وتلكأ فى الخرطوم عن سبق إصرار متحديا بذلك أوامر رؤسائه ! ولعل غوردون لم يفعل ذلك إلا لغرض واحد وهو أن يرغم الحكومة

البريطانية على إرسال جيش بريطانى إلى السودان حتى يحطم قوة المهدى . هذا هو ظن غوردون ولكن فليعلم غوردون أنه خاب ظنه وساء فأله ! ثم يعود فيقول من هو هذا الغوردون الذى يفرض إرادته على جلادستون . ومن ثم لمع بريق النضال والكفاح فى عينى ذلك السياسى العتيق . ومرت الأسابيع ثم الشهور وحالة غوردون فى الخرطوم تزداد سوءاً ولا يعلم إلا الله ما كان يجول بخاطر غلادستون من انفعالات أو خواطر متنازعه . فليس هو المسئول عن إرسال غوردون إلى السودان ؟ وعجب لأنه لم يعد أدراجه . لقد لقبه الناس بالبطل المسيحى ؟ حينا ! ولكن الدنيا مليئة بأمثال هؤلاء الأبطال . إذن فلنتركه حتى تحكم حلقة المهدى حول رقبته وحتى تتساقط حراب المهدى حوله ليكون ذلك اختبارا لبطولته وامتحانا لها فاذا نجح فى الهرب والنجاة وعاد إلى العالم الخارجى — فسوف يحكم له أو عليه إن كان بطلا أو شبه بطل .

وكان بين آخر البرقيات التى أرسلها غوردون قبل قطع أسلاك البرق مايؤيد وجهة نظر غلادستون . إذ أرسل يقول

لبيرنج أنه مادامت الحكومة البريطانية رفضت أن ترسل الزبير أو ترسل قوة إلى السودان فانه يعتبر نفسه حرا فى أن يعمل ما تمليه عليه الظروف وأكد أن الحكومة البريطانية مهما ترددت فسوف تضطر يوما ما لإرسال حملة ضد المهدى طوعا أو كرها عاجلا أو آجلا فاذا ظلت الحكومة متشبثة بجمودها فسيكون نصيبها العار الأبدى .

نشرت جميع الصحف تلك البرقية وقرأها غلادستون فى الصحف لأول مرة أثناء فترة استجمام فى الريف . وصف أحد الحضور ذلك فقال لاحظت المستر غلادستون أثناء قراءته للبرقيه فشاهدت وجهه يتصلب ثم ينقبض وغاض منه الدم فعلته صفرة بيضاء باهته . ولم أشاهده فى مثل هذه الحالة قط إلا مرة أو مرتين فى مجلس العموم عندما يشتد غضبه . وأما عيناه فكانتا أشبه ببوتقتين ملتهبتين كأنما استعرت فى نفسه النار من كلمات غوردون حتى برزت من مقلتيه . ولكنه مع ذلك لم ينطق بكلمة ولم يشر بإيماءه غير أنه غادر الغرفة بعد دقائق معدوده ولم يعد الينا طيلة صباح ذلك اليوم .

ومن العجيب أنه لم يدر بخلد غوردون الدور الفتاك الذى لعبه غلادستون فى القضاء عليه إذ أن مذكراته التى كتبها فى الخرطوم لم تشر إلى غلادستون إلا إشارات عابرة فيها كثير من السخرية بزيه وتفكه بهوايته فى قطع الأشجار على أنه خص جرنفيل بالنصيب الأوفى من دعابته وسخريته . والحقيقة أن هذا كان رجلا لا وزن له ولا رأى له فى تلك المسألة . وتدل مذكرات غوردون على أنه كان يرى انجلترا ورجالها بعين الخيال ومن وراء غشاوة بينما جعل قرب الشقة بينه وبين بيرنج ذلك الأخير واسطة العقد فى مذكراته .

تحليل شخصية بيرنج

فكان فى نظره النموذج المجسم للموظف الانجليزى وللسياسة الانجليزية وللحكومة البريطانية بكل مافيها من تردد وعدم إخلاص ونفاق فى كل ماتفعل كما اعتقد أن بيرنج هو المحرك الأول ورأس المؤامرة فى مشكلة السودان . وفى ذلك كان غوردون مخطئاً أيضاً إذ لم يكن بيرنج سوى وسيط لا يضطلع

بمسئولية ولا يتمتع بسلطان إلا أن غوردون كان على شيء من الحق إزاء هذا الرجل إذ لايستطيع أن يتنامى النفور الشديد الذى شعر به نحو بيرنج عندما التقيا لأول مرة منذ ست سنوات — قال عنه فى مذكراته : إذا اختلط الزيت بالماء عندئذ يقوم بيننا الود ، ولاشك أن نفس الفكرة قد جالت بضمير بيرنج أيضا ولو أنه لم يفض بها لا تصريحاً ولا تلميحا . لأنه مدرب على ألا يقول كل مايجول بخاطره بسبب حرصه وتحفظه ومحافظته على المظاهر هذا إلى مايتميز به من المرونة والصلابة والقوه وبعد النظر وكان نصيبه منها أوفى مما يتمتع به أى فرد آخر. وهو فى كل ذلك على نقيض غوردون . وأماصبره وأناته فأطول من بعد نظره فكان ينفذ سياسته فى هدوء وتأن يستطيع معهما أن يعود أدراجه إذا شاء فأتقن بذلك خطة السكر والفر والشد والتراخى حتى أصبحت لديه فناً يتفوق فيه حتى إذا قارب النهايه ضرب ضربة لازب — والعجيب أن حياته تكاد تكون هى أيضا مجموعة من المتناقضات فقد مضى الشطر الأكبر منها فى الشرق ومع ذلك فلم يهتم بشئونه إلا بقدر إذ كانت كل مهمته أن

يشرف على شئون الشرق حيث استطاع أن يظهر مواهبه وتركزت كل أمانيه حول تحقيق أمنية واحدة وهى أن يقضى شيخوخة سعيدة ينصرف فيها إلى ميوله الأدبيه . فلم ينس قط رغم كثرة مشاغله أن يعاود قراءة الأدب القديم ويطيل فيه النظر . ﴿ قد قضى لورد كرومر زهاء ربع قرن فى مصر وهو يكاد يكون المحرك الأول للسياسة الداخلية فى مصر ومع ذلك اعترف فى كتابه (مصر الحديثه) أنه كان لا يعرف العربية بتاتاً وكان كل مايعرفه من لغات الشرق بعض ألفاظ تركية ﴾

دوره فى مسألة غوردون

كان بيرنج يحرك الناس وهو جلمود لا يتحرك أخرس الحس عديم التأثر وكان فى طبعه احتقار جميع مرءوسيه بل وجميع الذين صحبوه إلا أنه تورع عن أن يحتقر غوردون كما فعل بغيره من الناس بل كان على العكس يتوق إلى استخلاصه والتحبب اليه .

لقد رأينا كيف عارض بادىء الأمر فى تعيينه ثم انصاع تحت ضغط الحكومة البريطانية وإلحاحها وصور له وهمه فى

لحظة ما أن الأمور ستسير كما اشترط أن تسير فيفرض إرادته على غوردون العنيد بفضل ماله من الرئاسة فى المركز وبرجاحة آرائه وتقيد الاخير بأحد طرفى سلك البرق فى الخرطوم بيناهو ممسك بالطرف الآخر وماعليه إلا ن يصدر الأوامر غير أنه ماعتم أن أحس بقصور تفكيره وتفاهة تقديره وشعر بامتعاض شديد وأدرك أن هذا السلك الذى كان يعتمد عليه لم يعد أداة صالحة للادارة وإصدار الأوامر إذ أن مرءوسه العنيد أمسك بالطرف الآخر وقلب الأوضاع رأساً على عقب واستغل استعماله بحيث جعل شخصيته أبرز ما تكون فى القاهرة ومحور كل مايدور فيها . ففى صبيحة كل يوم يفاجأ السير افلن بيرنج بأكداس من البرقيات على مكتبه بين العشرين والثلاثين على الأقل وكلما ارتفع قرص الشمس زاد ارتفاع تلك الأكداس فيكب بيرنج عليها قراءة بكل تمعن وعناية ويجد فى ثنايا ها نزعات غوردون مفصلة أمامه بكل مافيها من شذوذ وخبل وسخرية وخيال ومتناقضات بين العقل والجنون حتى كاد يفرغ صبره ويتضجر من شدة الغيظ ولكنه مع ذلك لم يصرح أبداً بأنه يعتقد بأن الرجل مشوش

العقل ولم يزد على أن يبتسم ابتسامة مرة والحقيقة أن مركز بيرنج كان مركزا غاية فى الدقة يحتاج إلى كل ما أوتيه من ضروب اللباقة والكياسة حتى يخرج من هذه المشكلة غانما إذ ألفى نفسه بين عاملين متنافرين أولهما حكومة مترددة منافقة وثانيهما رجل متهوس متحمس . فكان عليه أن يشرح لحكومته مقترحات ورغبات بل وآمال غوردون الخيالية ثم يعود فينهى إلى الأخير قرارات أو بالحرى انعدام القرارات التى تتخذها الحكومة . ولو أن رجلا ضعيفاً خائر العزيمة عديم اللباقة فى مثل مركزه لأصبح حطاما يتقاذفه المد والجزر الذى تتأرجح بينهما سياسة حكومة مترددة . ولو أن رجلا أخرق فى مثل مركزه لاندفع بكليته لنصرة غوردون وتنفيذ خططه . ولكن بيرنج لم يفعل هذا ولا ذاك ولكنه بفضل جرأته المروضه وحيطته البالغة استطاع رغم دقة مركزه أن يسير الأمور بين الطرفين فيستخلص من البرقيات المكدسة أمامه آراء غوردون ويبلغها إلى الحكومة البريطانية محاولا إقناعها أن تعدل عن ترددها وتتخذ قرارا حاسما كما يفضي إليها بوجهة نظره الشخصيه

فى توجيه الأمور راجيا أن تقرها الحكومة . وكان على وشك أن ينجح لولا أنه لم يحسب حساب الزمن والظروف التى لم تكن فى جانبه إذ ثارت القبائل الضاربة حول الخرطوم فانقطع آخر خيط من خيوط الأمل وأصبح الوصول إلى أى حل فى حيز المستحيل .

وكان بيرنج أسبق الناس إلى إدراك استحالة الوصول إلى تفريج تلك الأزمة . سبق فى ذلك الحكومة البريطانية بل وسبق غوردون نفسه بزمن بعيد وعندما بادر بتقديم اقتراح يقضى بإرسال قوة صغيرة لإنقاذ غوردون عن طريق سواكن وبربر ثم الخرطوم إلا أن العسكريين بعد تردد وتسويف قرروا أن اقتراحه ليس عملياً فرأى ببعد نظره النتيجة المحتومة لمنطق الحوادث وقدر فى نفسه أنه أصبح من المحتوم على الحكومة رضيت أم لم ترض أن ترسل قوة كبيرة لإنقاذ غوردون وأن تسارع فى إرسالها وفى تلك المرحلة تدخل غلادستون وانفرد بالعمل دون بقية الوزراء بأنه لن يرسل أية نجدة للخرطوم فما هى الخطة التى يجب على بيرنج إتباعها ؟ هل يواجه غلادستون ويقامر بمركزه

ويهدد بالاستقالة ويربط مصيره بمصير غوردون أو أنه يقف مكتوف اليدين ساكناً ؟ اقترح على الحكومة أن ترسل برقية إلى الخرطوم تعلن فيها أنها سترسل نجدة لانقاذ غوردون صونا لكرامتها وحفزا له على الثبات وإلا فانه لن يتحمل سوء مغبة موقف الحكومة . فلما تلقى الرد بالرفض أيقن عندها أنه لا فائدة ترجى من الاستمرار فى تبادل الرسائل مع الحكومة البريطانيه

﴿ قال اللورد كرومر فى كتابه مصر الحديثه مانصه « إن مسئولية التأخير والبطء فى إرسال الحملة تقع كلها على عاتق غلادستون . فلو أنه اتبع حقيقة سياسة عدم التدخل التى يسلكها اليوم أزاء المهدى تاركا السودان ميدانا للفوضى والوحشية لو أنه اتبعها أزاء الشعب المصرى المتحضر الذى كان يناضل بحق فى الحصول على حقه المشروع من الحريه تحت زعامة عرابى وأنصاره الدستوريين الأحرار لأنقذ حياته السياسية من الانهيار ولأنقذ أمته من الكوارث التى حلت بها ﴾ وظل بيرنج يقلب الرأى عساه أن يهتدى إلى عمل إيجابى من جانبه إذ الدور الرئيسى فى هذه المشكلة فى يد غير يده . فلو أنه قدم استقالته

لقبلت وعين رجل آخر فى مكانه وهذا لن يغير الموقف ولن يعيد غوردون سالما فماذا يجب عليه أن يفعل ؟ هل يقف دون أن يبدى حراكا وينتظر حتى تحل الكارثة ؟ لقد كانت هذه المشكلة أعقد ماواجهه بسبب سوء تصرف غوردون . كان فى مقدوره أن يعتصم بالصمت فيصيب غوردون فى الصميم ولكنه لم يفعل بل حاول محاولة أخيرة فيها جرأة كبيرة وسط تلك الظروف إذ أرسل برقية إل الحكومة يقترح فيها إعداد بواخر نيلية مسلحة واتخاذ إجراءات أولى تمهيدا لارسال نجدة إلى السودان قد يقررها الخبراء العسكريون والبحريون فاذا قرر ذلك أمكن إرسالها على وجه السرعه . وفى تلك اللحظة الحرجة الحاسمة فى تاريخ مأساة غوردون اختفى بيرنج فجأة من فوق خشبة المسرح وتركه خالياً وتخلص من مسئولياتة إذ غادر مصر بعد أسبوع واحد من تاريخ برقيته إلى لندن حيث كان عضوا فى لجنة مالية وحل محله شخص آخر أثناء غيابه .

اتساع ثورة المهدى :

وبينما كانت هذه الحوادث تدور فى مصر وإنجلترا كانت

قوات المهدى تنشر سلطانها وتوسع رقعة سطوتها كل يوم فى أعالى النيل فاحتلت بحر الغزال وأبادت الحامية المصرية بها وأسرت قائدها (لبتن بك) وأما فى المناطق الاستوائية فان أمين باشا تقهقر إلى مفاوزها المجهولة وزالت بذلك آخر معالم السيادة المصرية فى مديرية خط الاستواء .

وأما المهدى نفسه فكان مايزال متربعاً فى قصره بالأبيض غير أنه بدأ يتحرك بعد ما انضمت إليه القبائل الضاربة حول الخرطوم وقدر أن الفرصة مواتية لاتخاذ خطة الهجوم فوجه منشورا مطولا بين فيه مقاصده الدينية والوطنيه إلى السودانيين عامة وأهل الخرطوم خاصة دعا فيه الأخيرين للتسليم طوعا لأنهم لايستطيعون مقاومة جيشه الظافر وأنه قد وجه اليهم جيشاً قوامه ثلاثين الف مقاتل . فما كاد يصل هذا المنشور إلى غوردون حتى جمع سكان الخرطوم وقرأه عليهم فى حفل حاشد وما انتهى منه حتى ارتفعت صيحاتهم بأنهم سيقاومون المهدى لآخر لحظة من حياتهم وأعلنوا أنهم لايعتقدون فى المهدوية وإن هو إلا مهدى دجال وأن الله سوف ينصر الحق على الباطل

كما أعلنوا ثقتهم المطلقة فى غوردون واجتمع العلماء ووضعوا رداً مستفيضاً يكذبون فيه دعوى المهدى لأن ظهور المهدى المنتظر مقترن بعلامات مقررة العدد لم تظهر للناس وفى هذا تكذيب للمهدى وادعائه . ومهما تكن الحجج من القوه فإن جيوش المهدى كانت أقوى منها وأشد . ثم بدأ الهجوم على الخرطوم وخرجت الحامية المحصورة فهاجمت قوات المهدى لتخفيف الحصار عن المدينة ولكنها ردت على أعقابها مهزومة وسادت الفوضى صفوف الحامية المهزومة فأمر غوردون أن يحاكم ضابطان مصريان بتهمة الخيانة العظمى والإهمال وفعلا صدر الحكم بإعدامهما . وهكذا استحكمت حلقة الحصار على الخرطوم ولم تكن خطة المهدى الاستيلاء عليها عنوة وإنما أراد أن يرغمها على التسليم جوعاً وأصبح من الجلى بعد أسابيع قليلة أن الحكومة البريطانية لم ترسل نجدة عن طريق سواكن إلى بربر كما سبق أن اقترح عليها غوردون وحدث أن بربر وهى المدينة الوحيدة التى لم تسلم فى شمال السودان والحلقة الأخيرة بينه وبين مصر قد سقطت فى أيدى الدراويش فأعملوا فى أهلها السيف والنار واستمرت

بها مذابح تقشعر لها الأبدان عدة أيام . ورغم ذلك ضاعف غوردون نشاطه فى إقامة الاستحكامات وحفر الخنادق بأقصى مايمكن من السرعة وقوى وسائل الدفاع ونظم توزيع المؤن وصنع الذخائر . وكانت المعارك سجالا بين الطرفين والاشتباكات تحدث كل يوم وساعة بين المحصورين والمحاصرين واستغل البواخر النيلية المسلحة فى تشتيت صفوف الأعداء شمال السودان وجنوبها ولما قل النقد فى التعامل لجأ إلى طبع أوراق مالية حلت محل النقود المعدنية كما ضرب عدة مدليات أنعم بها على أهالى المدينه ولم يحرم منها النساء دفعاً لقلقهن واضطرابهن فزادت محبة الجميع له حتى كانوا يحرسونه فى رواحه ومجيئه صوناً لحياته وخوفاً عليه من أن يصيبه مكروه وتقديراً منهم لشخصه .

غوردون يصر على البقاء وعمل الحصار

فكيف كان يستطيع غوردون أن يهجر هؤلاء الناس ؟ كيف كان يستطيع أن يفر من شعبه ؟ إنه لن يستطيع ذلك أبداً ؟ فقد قال فى إحدى برقياته لبيرنج « إن تخليه عن هؤلاء الناس محض خيانة وخسه لايستطيع أن يرتكبها » ولكن بيرنج

كان يرى أن المسألة أبسط مما يصوره غوردون بكثير إذ أن الذى سيحدث لهم هو وقوعهم فى أسر المهدى عند انسحابه من السودان . وفاته أن الوقوع فى أسر المهدى ليس أمراً بسيطاً كما يتخيله بدليل المذابح العظيمة التى تعرض لها سكان بربر ثم بعد ذلك سكان الخرطوم.

ولنا أن نستدرك هنا بسؤال : هل كان حقا الدافع الوحيد لغوردون على التلكؤ فى الخرطوم هو حبه لأهل السودان وشعوره بالمسئولية نحوهم ؟ ألم يكن الدافع له أنه يريد أن يورط الحكومة البريطانيه ويرغمها على إرسال تجريده لتحطيم المهدى . فهل كان ذلك عدلا ؟ وهل كانت تلك مهمته التى بعث من أجلها ؟ سيرد غوردون على ذلك بأنه لم يفعل غير ما أملاه عليه ضميره من الواجب ومع ذلك فان إفلن بيرنج لم يعتقد قط فى صدق هذا التدليل .

ولكن أنى لغوردون أن يسمع صوت إفلن بيرنج ! لقد انقطع مابينهما وأصبح غوردون لايعير آراء بيرنج أى اهتمام ولكن صك أذنيه صوت آخر صوت غريب لابد أنه أثار فى

نفسه ذكريات محببة إليه . لقد وصلته رسالة من المهدى ومع الرسالة هدية هى جبة ومعطف وعمامه ومنطقه ومسبحه . دعاه فيها إلى لبس الجبه والتجرد من زخرف الحياة لأنها لباس الذين زهدوا فى الدنيا وأعدوا أنفسهم لاستقبال اليوم الآخر ونعيم الخلد فإذا كان غوردون يؤمن بذلك فما عليه إلا أن يأتزر الجبه ويخرج إلى معسكر المهدى حتى يفوز بما وعد الله به المتقين من متاع الآخرة . يخيل لنا أن هذه الدعوة لابد أنها لاقت ترحيبا خفيا من قلبه ووافقت هوى من نفسه لأنها تتفق مع فلسفته فى الحياة . إلا أننا نراه يثور ويرغى ويزبد وبدلا من أن يلبس الجبه قذف بها إلى الأرض وضربها بقدميه أمام حشد من الناس ثم اختطف فى حركة عصبيه منظاره وصعد سراعا إلى سطح قصره وصوبه نحو الشمال عله يرى بشائر النجده ولكنه لم ير سوى الأفق العارى جامداً لا يتحرك وشد ما كانت خيبته ويأسه فتراخت يده فى قنوط وعندئذ استولى عليه شعور عميق بالخذلان لأن العالم قد هجره وتجاهله . ولكن كيف يمكن أن تصله النجده ؟ إن السير بيرنج فى انجلترا يبحث المسائل الماليه والمستر

غلادستون قائم مكانه لا يتحرك وقد صمد لهجمات مجلس العموم وتجاهل الرأى العام كما تجاهل الصحافه . ودلت ظواهر الأحوال على أنه انتصر على معارضيه ورغماً من أن الرأى العام قد تحقق أن الحكومة لم تبد حراكا ولم تحرك ساكنا فى سبيل الاستعداد لنجدة غوردون فان الصيحة المدويه التى أثارتها الصحافه كانت قد ضعفت ثم تلاشت نهائيا واستطاع ذلك السياسى العتيق أن يروض وحش الرأى العام ويستأنسه ثم أعقبت ذلك أمور شغلت بال الجمهور — وأهمها قانون الإصلاح — ثم سياسة روسيا ثم مشكلة مجلس اللوردات — وفى غمرة هذه المشاغل نسى الناس غوردون نسيانا تاما .

لورد هارنجتون . خصيته وتحرضه على انقاذ غوردون

إلا أن مسألة غوردون برزت من جديد من ناحية غير متوقعه . إذ أن اللورد هارنجتون كان يعتبر نفسه المسئول الأول عن إيفاده وقد آلمه وأقض مضجعه أن يرى الأمور تتحرج إلى تلك الدرجه . ولا شك أن عدم ارتياح ضميره لسوء تصرف الحكومة كان يعبر عن عدم ارتياح ضمير الرأى العام . وقد

اشتهر هارنجتون بين أصدقائه أنه حكم منصف ولم تكن شهرته في الأوساط العامة تقل عنها في الأوساط الخاصه فكثيراً ماستشير في شتى المسائل فدل على رجاحة تفكير وإنصاف ولذلك كان يتمتع بثقة الجميع من عام وخاص . وعرفه الجمهور بأنه رجل نزيه نظيف . تلك النزاهة الانجليزية التي يعتز بها كل مواطنيه وهي صفة عزيزة إلى قلب كل انجليزي ويتمنى كل منهم أن يتصف ويشتهر بها أو يتوهم أنه متصف بها . واشتهر عن هارنجتون عدم التحيز والاتزان وحسن التصرف وإنكار الذات والتجرد عن الانفعالات النفسية والتحرر من الخيال والتصور . كما حببه إلى مواطنيه ولعه بسباق الخيل . ومن مأثور قوله أنه يتمنى في حياته تحقيق أمنيتين الأولى أن يفوز برياسة الوزاره والثانيه أن يفوز بجائزة دربي وأنه يفضل الثانيه على الأولى . ولقد قربه إلى قلوب مواطنيه نواح أخرى في خلقه فأحبوا فيه تفاهته وخوره وأخذه ظروف الحياة أخذا رفيقا . وكم من مرة دس في جيب معطفه برقية ذات أهمية عظمى ونسى أنها هناك لولا أنه عثر عليها بطريق الصدفه بعد ذلك بأيام وهي بختمها

لم تفض . وأحبوا فيه مقته للمغالاه وكم أطربتهم دعابته عند تعليقه على جملة قالها أحد الخطباء فى المجلس وهى « إن هذه اللحظه هى أعظم لحظة أفخر بها فى حياتى » إذ همس فى أذن أحد جيرانه « إن اللحظة الوحيدة التى أفخر بها فى حياتى كانت عندما ربح أحد خنازيرى الجائزة الأولى فى أحد المعارض » وكان حديثه خاليا من التزويق جاف التفكير ولكن مع كل ذلك ينال ثقة سامعيه ويقنعهم بمجرد سرده للحقائق العاريه فى سلسلة متلاحقة من الكلام فى خطبه البرلمانيه أما مظهره فكان أقرب إلى مظهر فلاح أجير منه إلى وارث دوقية عريضه ومع ذلك فكانت هيئته تشعر الناظر إليه بتلك الارستقراطية العريقه التى تبرز فى قسمات وجهه الطويل ذى اللحية العريضه . ولا بد من ذكر صفة أخرى حتى تكتمل صورة هذا الرجل وهى صورة غريبه إذ كان بطيئا فى كل شىء . بطىء الحركة والتفكير والإدراك بطيئا فى البت برأى ما فى أية مسألة فإذا صمم على رأى كان أبطأ فى تنفيذه . وكثيراً ما جلبت عليه تلك الصفات جم المصاعب والمشاكل التى عاقت تقدمه فى حياته السياسيه وقد لا تضر جبلة البطء أى

فرد عادى ولكنها تؤثر بلا شك فى حياة رجل سياسى وتصيب سمعته بأفدح الأضرار مهما تكن عزوته ورجاحة حكمه إذ لن يستطيع أن يلاحق أحداث الزمن المتواترة وقد يرتكب خطأ فادحا يكون سببا فى كارثة لاعلاج لها ولا تدارك .

وكذلك كان . فإن مصير الجنرال غوردون واشتباكه بأشتات من الظروف والملابسات المعقدة المتصلة بسياسة انجلترا ومصر والمهدى وحياد السير افلن بيرنج وعناد غلادستون كانت كلها راجعة إلى بطء لورد هارنجتون وتهاونه . ولو أنه استطاع أن يكون أقل بطءاً وأكثر نشاطاً من ذلك ولو بيومين اثنين فقط لما حلت الكارثه . ولكن النشاط كان أبعد شىء عن جبلته .

إن تلك الآلة الهائلة التى استغرقت وقتاً طويلا حتى تحركت ولما تحركت سارت ببطء عجيب وتراخ مؤلم لتتم عملها بكل تؤدة وثبات وقد أتمته ولكن على الطريقة الانجليزيه أى بعد فوات الأوان . ونستطيع اليوم أن نقسم نشاط اللورد هارنجتون لحل مشكلة غوردون إلى سبع مراحل مميزه . ففى المرحلة الأولى

شعر بأنه هو المسئول الأول والأخير عن إيفاد غوردون للخرطوم وفى الثانية تيقظ ضميره وأدرك أنه لايستطيع أن يقف مكتوف اليدين إزاء مصير غوردون وفى الثالثه حاول أن يؤثر على الوزاره لترسل نجدة لإنقاذ غوردون وفى الرابعه تحقق أن الوزاره قررت أن ترجىء إرسال النجده إلى أجل غير مسمى وفى الخامسه رأى لزاماً عليه أن يضغط على غلادستون وفى نهاية السادسه حاول التأثير على غلادستون فلم يفلح وفى نهاية السابعه استطاع أن يقنع غلادستون وفعلا قرر هذا أن ترسل النجده وعندها رأى هارنجتون أنه فعل أقصى مايستطيع وكف عن أن يفعل شيئا آخر .

حدث هذا التحول الفجائى فى مشكلة غوردون فى نهاية ابريل عام ١٨٨٤ عندما وصلت آخر برقية من بيرنج إلى مجلس الوزراء الذى رفض أن يرسل أية نجده لإنقاذ غوردون . عندئذ رأى اللورد هارنجتون أن الطريق الوحيده المفتوحه أمامه أن يقدم استقالته مهدداً ولكنه استغرق ثلاثة أشهر لينفذ مااعتزمه فقد حضر جلسة مجلس الوزراء التى ذكرناها وكان من بلبلة الفكر

بحيث لم يستطع إدراك مجرى الحوادث ولا القرارات التى اتخذت فى تلك الجلسه حتى أنه أرسل خطابا للورد جرنفيل يستفسر فيه عما حدث فيها بالضبط مع أنه كان حاضراً فيها وكان قرار الرفض قد أبلغ إلى بيرنج وبلغ به البله أنه بعد مضى ثلاثة أسابيع على تلك الجلسه أى فى أواسط مايو أرسل منشوراً دورياً لأعضاء الوزاره يدعوهم فيه إلى عمل التمهيدات الأولية لإعداد حملة لإنقاذ غوردون إلا أنه أفهم أن هذا لن يتم حتى يوافق المستر غلادستون شخصيا على ذلك وعندئذ بدأ نضال عجيب بين الرجلين واستطاع السياسى العتيق بدهائه أن يسوف ويقيم العقبات ويتذرع بالصعوبات ويراوغ فى الادلاء بجواب صريح وأخيرا لجأ إلى التهرب والاختفاء ولكن هارنجتون كان جاداً فاستطاع أن يحاصر غلادستون ويجبره على التسليم ولكن بعد فوات وقت طويل ففى أول يوليه من ذلك العام مثلا صرح هارنجتون أنه لا يعلم علم اليقين ماهى نوايا مجلس الوزراء بخصوص تقرير نجدة لإنقاذ غوردون وظل طيلة ذلك الشهر يتبع غلادستون أينما حل محاولا استخلاص تصريح جلى منه فى تلك المسألة

ولكن على غير جدوى وفى ٣١ يوليه أقدم هارنجتون على التهديد بالاستقاله وحسم كل شك فقال إنه إذا لم ترسل الحملة فانه يقدم استقالته لأن مسألة غوردون ترتبط بشرفه وشرف وعوده وأنه إذا رفضت الحكومة إيفاد نجدة لإنقاذه فسيقضى ذلك على كرامته شخصيا » وهكذا تنبه أخيرا إلى أنه يجب أن يريح ضميره من ذلك العبء .

وما أن قرأ غلادستون كتاب هارنجتون حتى أدرك أن المسألة دخلت طورا جديا إذ أن لمرد هارنجتون ليس رجلا عاديا وإنما كان يشغل فى حزب الأحرار المرتبه الثانيه بعد غلادستون فقد كان الممثل والزعيم الذى لا ينازع للارستقراطية القويه فى حزب الأحرار هذا إلى نفوذه الهائل فى البلاد ولم يكن هارنجتون ليلوح باستقالته عبثا بل كان جادا فى أنه سيستقيل وستعقب استقالته تلك النتيجة المحتومه هى سقوط الحكومه .

البرلمان يقر اعتمادا ماليا لحملة الانقاذ

وكان أن تقدمت الحكومه فى ٥ أغسطس باعتماد ٣٠٠٫٠٠٠ جنيه إلى البرلمان ليتسنى لحكومة جلالة الملكة أن ترسل نجده

لإنقاذ غوردون إذا دعت الضروره ؟ فأقر البرلمان ذلك الاعتماد ولكن غلادستون لم يتورع فى آخر لحظه أن يدخل على المسألة تعقيدا فضلا عن الشرط الذى الذى أدخله فى نص قرار البرلمان فصرح بأنه مايزال يعتقد أنه لاتوجد ضرورة ملحة لإرسال تلك الحملة إذ كتب إلى لورد هارنجتون يقول أنه بلغه من جرانفيل أن جميع برقياتنا قد وصلت إلى يد غوردون ولكنه لايريد الرد عليها ، وأنه يكاد يعتقد بصحة هذه الأخبار . ورغم كل تلك المحاولات من جانب غلادستون لم يرمناصا من تعيين اللورد ولزلى (كان القائد الانجليزى فى معركة التل الكبير) قائدا لجيش الإنقاذ فى ٢٦ أغسطس وفى ٩ سبتمبر وصل هذا القائد إلى القطر المصرى . وبذلك أصبحت حملة الإنقاذ حقيقة واقعة .

وقع ذلك بينما كانت تجرى فى الخرطوم حوادث جديدة إذ ارتفعت مياه الفيضان وأصبح من الممكن أن ينتهز غوردون هذه الفرصة ليرسل إحدى البواخر المسلحة من الخرطوم إلى مصر دون أن تعوقها صخور الشلالات وعلى ذلك صمم غوردون أن يضع أمام الحكومتين الانجليزية والمصريه جميع الوثائق التى تبرر

مسلكه أمام الرأى العام . وفعلا شحنت الباخرة (عباس) بحمولة من الوثائق وبينها مذكرات الكرنل ستيوارت عن الحصار كما تشمل نداء صارخا من غوردون إلى جميع الدول الأوروبيه طالباً النجدة والمعونه وقرر أن تصحب تلك الباخره أربعة بواخر مسلحة أخرى إلى مسافة بعيده حتى تخرج من منطقة الخطر وتجوز قوات المهدى ثم بعد ذلك تتركها لتواصل السير بمفردها إلى مصر . وفى مساء يوم ٩ سبتمبر استأذن قنصلا انجلترا وفرنسا فى أن يستقلا الباخرة فأذن لهما غوردون ولشدة دهشة غوردون أن استأذن منه أيضا فى السفر الكرنل ستيوارت نائبه فى القياده فلم يتردد فى الإذن له بالسفر . والحقيقه أن مسلك الكرنل ستيوارت كان مثيراً للدهشة لأن سفره يعنى أنه تخلى عن غوردون وتركه دون أى معاون له من الضباط الأجانب غير أن الدوافع التى حملته على هذه الخطه ستظل سراً مجهولا إلى الأبد .

ومن ثم سارت الباخره عباس وخلفت وراءها غوردون وحيدا فى عزلة عن العالم وسط أشد حالات الخطر والارتباك

ولـكنه كان قد اعتزم أمراً بينه وبين نفسه وصمم عليه . إنه سيظل مقيما فى الخرطوم وبذلك المسلك مكن لغلادستون أن يبرر امتناعه عن إرسال النجدة له بأنه كان فى استطاعة غوردون أن ينجو بنفسه على الباخره عباس وأنه لم يفعل ذلك لأنه اختار البقاء طواعية غير مجبر .

مذكرات غوردون

وما أن غابت الباخرة عن الأنظار حتى عاد غوردون وجلس إلى مكتبه وبدأ يكتب مذكراته اليوميه عن الظروف والملابسات التى أحاطت به وصب فيها كل مشاعره وتأملاته وأحلامه التى كشفت عما عاناه وما لاقاه فى تلك الفتره العجيبه فترة المرحلة الأخيرة من حياته وصور كل ذلك بمنتهى الدقة والتفصيل ووجه الخطاب فى تلك المذكرات آنا إلى الـكرنل ستيوارت وآنا إلى القائد العام لحملة الإنقاذ وأوصى بأن تطبع وتنشر . والحقيقة أن مجموعة هذه المذكرات أعجب مجموعة فى كل الوثائق .

ولم يثن هذا الرجل الخراب والدمار وخطر الموت المحقق الذى يحيط به فى السراى عن أن يطلق العنان لمخيلته مدبجا بقلمه

صفحات بعد صفحات عبر الساعات الطوال مفضيا بجميع همومه وشئونه فى سطورها حيث اختلطت جسام الحوادث والتأملات الفلسفيه بالتوافه وأزاح فيها الستار عن آماله وآلامه واعترافاته وفزعه وثورته على العالم . كل ذلك فى صعيد واحد .

وهذا الرجل الذى أصبح فى عزلته منقطعا عن العالم لم يجد إنسانا ما يؤنسه فى وحشته غير صفحات البرقيات البيضاء التى سودها على سعتها لأنها لم تعد صالحة لإقلاق راحة السير إفلن بيرنج . ولم يكن أسلوبه فيها ذلك الأسلوب الدينى الذى كان يخاطب به القس فى اكستر أو أخته أوجستا بل كان أسلوب صديق يتحدث إلى أصدقاء حميمين ويبدو أنه حاول جاهداً فى هذه المذكرات أن يبرر مسلكه أمام الرأى العام وأمام اللورد ولزلى وفسر ذلك بأن الله هو الذى قضى بذلك قضاء لامرد له ويشعر كل قارىء لها بآثار نزعات الطفوله والسذاجه التى لازمت غوردون إلى آخر حياته كما يلحظ القارىء أن هذه المذكرات تدور حول نقطتين وهما حوادث الماضى وحوادث المستقبل القريب فشرح وفصل جميع الحوادث المعقده التى مرت به والدور

الذى لعبه فيها مبرراً مسلكه وأنحى باللائمة على الحكومة البريطانيه فى تخليها عنه كما صب سخريته واستهزاءه على الموظفين والسياسيين فى الحكومه حتى أنه رسم لهم صوراً هزليه على هامش الصفحات منها صور للسير بيرنج وجرنفيل وغيرهم وخص هذا الأخير بأشنع القبائح ورماه بالإهمال وعدم الاهتمام ووجه اليه هجاء لاذعا ورسم له صورة هزليه وهو يفتح جريدة التيمس معبراً عن دهشته لصمود غوردون طول تلك المده أى ستة شهور ويتبرم من أنه سيضطر أخيرا لإرسال نجده لإنقاذ غوردون .

وقد ذكر فى مرارة وحقد أن رجال الحكومه البريطانيه كانوا يسرون فى ضمائرهم انتظار سقوط الخرطوم فى يد المهدى حتى يتخلصوا من أعباء مشكلة إنقاذه .

وفى صورة هزليه أخرى أنطق جرنفيل وجعله يقول «لماذا لا يقضى هذا المهدى عليه قضاء نهائيا حتى لانرسل حملة تكلفنا الملايين من الجنيهات . أليس من المستطاع أن ننقذه بطريقة أقل كلفة وأرخص ثمنا» ثم نراه يتحول من ذكرى الماضى إلى واقع

الحاضر فيتساءل ماذا يكون موقفه من حملة الإنقاذ ؟ ويجيب هو فيقول إن موقفه لن يكون أبدا موقف الحمل الذى أنقذ لأن مهمة الحمله لن تقتصر على إنقاذه شخصيا وإنما إنقاذ بقية الحاميات المحصوره فقد قال فى مذكراته مايأتى بالنص « إننى أصرح علنا بأننى لن أبرح السودان إلا إذا خرج منه آخر من يرغب الخروج ولن أبرحه حتى تؤسس حكومة تضطلع بالواجب الذى ألقى على كاهلى وتعفينى منه ولو فرض وأن الحكومة البريطانيه أرسلت مبعوثا إلى أو أصدرت أمرا كتابيا لى بالانسحاب فاننى أرفض إطاعة تلك الأوامر وسأبقى هنا فى هذه المدينة فأسقط معها إذا سقطت وأقاسم مع جميع أهلها كل المخاطر التى يتعرضون لها » وهذا الكلام عصيان صريح وتمرد كان عنصرا من عناصر طبيعته . وحتى الحكومه التى افترض أنها ستحل محله عرض لها فى بحثه ورسم لها خطة من بنات أفكاره واقترح أن يعين أحد الباشوات حاكما عاما على السودان وقد يكون الزبير باشا أصلح رجل لذلك المنصب فاذا استحال تنفيذ هذه الفكره فانه يقترح أن تسلم البلاد كلها إلى

سلطان تركيا أما عن مصيره هو فقد اعتورته الخواطر فآنا تراه ينسحب جنوباً ليعيش فى مديرية خط الاستواء وآنا ينسحب إلى بروكسل ولكنه فى كلتا الحالتين لن يفكر فى العودة إلى انجلترا أبدا إذ أنه يفضل أن يعيش عيشة الدراويش مع المهدى على رؤية أى وجه فى انجلترا بزيفها وحفلاتها وسهراتها وولائمها الكريهة إلى نفسه بل إنه شديد الاغتباط لفراقها إلى الأبد .

ثم تتكاتف عليه الهواجس والوساوس عن مآله فيرى بعين الغيب النفاذه أنه إن لم تصله النجدة قبل نهاية شهر نوفمبر فقد قضى عليه وقضت عليه بريطانيا قضاء مبرما .

وعندما بلغه أن المهدى قد تحرك بشخصه على رأس جيشه ليدير دفة الهجوم على الخرطوم أثبت فى مذكراته مايأتى :- إن يد القدر قد قضت أخيرا بأن نتقابل وجها لوجه ، ومن غريب الألهام أن يتنبأ بأن الخرطوم ستسقط فى يد الأعداء تحت سمع الحملة وبصرها وأنها ستصل بعد فوات الأوان ونظر إلى السماء فرأى جماعات الحدآن تحوم فى الجو منذرة إياه بشؤم المصير .

واستولت عليه فى وحدته حمى التدوين فملأ أوراقا وأوراقا

بكل مايجول فى نفسه من المخاوف والآمال ثم أغرق مخاوفه فى التأملات الفلسفية والدينيه ثم فى السخرية اللاذعه ولم ينسه هول الساعه من إنشاد أبيات للشاعر الألمانى شيلر تذكرها عندما شاهد أسراب البجع تجوز سماء الخرطوم وفى (مذكرات الخرطوم) علق على آراء بلوطارخ فى الموت والجنة والنار بل وتعداها إلى ذكر آيات من القرآن وكان يحز فى نفسه ويمضها كلما ذكر أنه تسرع فى إعدام الضابطين المصريين فى مارس الماضى والتمس لنفسه المعاذير ولكن تأنيب ضميره على هذه الفعله لم يفارقه أبداً بسبب قسوة ذلك الحكم وحاول أن يصلح خطأه فأرسل لأسرتيهما مبلغا من المال تعويضا لهما عن فقد عائليهما .

تقلب طبعه وتزوده

ومع ذلك فكان متقلب الطبع وصارت أخلاقه من الحدة الفظاظه فى معاملة مرءوسيه حداً جعلهم يرتعدون ارتعاداً بيّنا فى حضرته وتلاشت ثقته بهم حتى لم يعد يرى فى وجوه الذين يحيطون غير الغدر والخيانه ولا يرى فى أهالى الخرطوم إلا منافقين متآمرين

يتهيأون لأن يثوروا فى وجهه وينقضوا طاعته لينضموا للمهدى واعتقد فيهم أنهم لايستحقون أية تضحية من جانبه ووصف الجنود والضباط بأنهم عصبة من الجبناء العاجزين والعجيب أنه لم يخص أحدا بالثناء غير أعدائه فكان أى درويش فى نظره أشجع وأشد مراسا فى الحرب وأصبر على الجوع والعطش والشدائد وملاقاة الموت واحتمال الألم كأنما قد من صخر وكان بوده أن لو استطاع أن يقود مثل هؤلاء الرجال. ومع كل هذا المديح الذى كاله لأعدائه فإنه كان يستخف بقوتهم ويجزم بأن نفرا من الأتراك أو الانجليز يستطيعون تحطيم تلك القوه ونفسر ذلك بأنه اعتمد فى معلوماته عن المهدى وجيشه على طائفة من التراجمة الجهلة المغرضين لأنه كان يجهل العربيه إلا ألفاظا يسيره فتصور المهدى بعين غيره ووجه اليه كل أنواع السباب والإهانه ولكن رغم ذلك يستطيع قارىء المذكرات أن يشعر من خلال السطور مايحمله غوردون للمهدى من الاحترام والرهبه.

وهكذا ظل غوردون وهو يحدوه الأمل لوصول النجده يقضى

الساعات الطوال على سطح السراى يوجه منظاره إلى الأفق فيراه ساكنا رهيبا . وكان كتشنر يشرف على إدارة المخابرات السريه فى مصر وكان غوردون ينتظر منه الأخبار وكان انتظاره عبثا .

وفى غمرة هذا القلق الشديد وصلت أنباء الكارثه التى حلت بالباخره عباس ومقتل الكرنل ستيوارت وجميع زملائه — فقد قضى سوء الحظ على هذه الباخره بعد أن اجتازت منطقة الخطر أن تصطدم بصخر فى مجرى النهر وعندها اضطر ستيوارت وزملاؤه إلى النزول إلى البر ليجمع قافلة من الجمال تحملهم وأحمالهم ليواصلوا السفر برآ وقبلوا دعوة أحد مشايخ العربان فى تلك الجهه فما كادت الجماعه تستقر فى خيمة الشيخ هذا حتى هجم عليهم اتباعه وقتلوهم عن آخرهم ومن ثم أرسلت كل المذكرات والخطابات والتقارير عن حالة الخرطوم التى كان يحملها ستيوارت إلى المهدى .

فلما بلغ غوردون خبر هذه الكارثه تولاه الحزن الشديد وبرح به الألم العميق لأنه اعتبر نفسه مسئولا عن وقوعها واعتقد أنها انتقام من الله وعذاب صبه عليه بسبب إعدام الضابطين المصريين ظلما وعدوانا .

ولعل أعجب مايدهش له الانسان تقلب غوردون وتلونه وغلظته فى معاملة سلاتين باشا .

سلاتين باشا

وسلاتين باشا هو الوحيد الذى بقى فى السودان من ثلاثة حكام فى تلك الأنحاء أولهم أمين باشا حاكم مديرية خط الاستواء الذى اختفى وانقطعت أخباره ثم لبتون بك حاكم بحر الغزال الذى توفى أو قتل . وثالثهم سلاتين باشا الذى كان حاكما لدارفور عندما شبت ثورة المهدى إذ اضطر تحت قسوة الظروف ووطأة الحصار التى أرهقت قواته أن يعتنق الاسلام ويعلن انضمامه اليه فى نداء وجهه إلى الحامية فى دارفور كى يستوثق من إخلاص جنوده السودانيين فلما وقع فى أسر المهدى لم يقتله وعفا عنه بسبب إسلامه واكتفى بسجنه فى معسكره بقرب الخرطوم ورغم يقظة حراسه فقد استطاع سلاتين أن يرسل بعض الرسائل سرا إلى غوردون يطلب منه المعونة حتى يهرب من الأسر ولكن غوردون لم يجب بأى رد على رسالته الأولى فأعقبها برسالة ثانية ظلت هي كذلك دون رد فأعقبها بثالثة

مكتوبة باللغة الفرنسيه قال فيها مانصه :

« ياصاحب السعادة . قد وجهت اليكم رسالتين سابقتين فلم أفز منكم بأى رد . ياصاحب السعادة إننى جندى حاربت أعداء الحكومة المصريه سبعا وعشرين مره وما زالت آثار جراح تلك المعارك بزدان بها جسمى : ولم أرتكب جرما يخالف الشرف ولذلك لاأستطيع أن أدرك سببا ما يعوقكم عن الرد على رسائلى وتوسلاتى بما يجب على أن أفعله وإننى أتوسل إليكم توسلا أن تولونى شرف الرد على فاذا كانت لديكم أسباب تمنعكم عن الاتصال بى أو بلغكم عنى أننى ارتكبت جرما يخالف النزاهة والشرف العسكرى فأرجو أن تتاح لى الفرصه فيما بعد أن أقف للدفاع عن نفسى وعن شرفى ثم بعد ذلك لكم الحرية فى الحكم لى أو على »

ولاشك أن سلاتين باشا كان يعلم السبب الحقيقى لتجاهل غوردون له وحاول سلاتين بعد ذلك أن يبرر اعتناقه للدين الاسلامى وفسر ذلك بأن اعتناقه للاسلام جعل الأمور والمصاعب التى كان يواجهها في دارفور أقل تعقيدا وحرجا ومضى يقول

إن تربيته المسيحية التى تلقاها لم تتمكن من نفسه تمكنا يمنعه من التحول إلى دين آخر ولكن غوردون المتدين المتعصب المتغالى فى مسيحيّته ظل جامدا كالصخرة إزاء ماسماه كفران سلاتين بربه .

ولم تلبث رسائل سلاتين حتى اكتشفت وافتضح أمره فأمر به أن يكبل بالقيود وبلغ ذلك مسامع غوردون فلم يزد على أن ذكر تلك الحادثه فى مذكراته دون تعليق . (كان سلاتين ضابطا بالجيش النمساوى عندما عرضت عليه الخدمه فى السودان ومن ثم توجه إلى الخرطوم حيث تسلم منصب المفتش المالى ولكنه عين بعد ذلك حاكما على دارفور وسار فى طليعة قوة إلى دارا سنة ١٨٧٩ وظل يشغل هذا المنصب عندما نشبت حركة المهدى فى السودان واحتل كردفان والابيض وأعدم محمد سعيد باشا حاكم كردفان وجميع الضباط المصريين بعد أن عذبهم العذاب الأكبر جزاء دفاعهم المجيد عن الأبيض وتكبيدهم المهدى أفدح الخسائر والدفاع عن الأبيض صفحة باهرة من صفحات الفخار فى تاريخ الجيش المصرى وظل سلاتين يدافع عن دارفور

دفاع الأبطال حتى هزيمة هكس باشا فى شيكان سنة ١٨٨٣ فاضطر أن يسلم إلى قوات المهدى حقنا للدماء ومن ثم سجن وكبل بالحديد وظل يعانى الأسر فى حكم المهدى . ولم يقتله المهدى بسبب اعتناقه الاسلام . ثم سقطت الخرطوم وقتل غوردون وتولى الخليفة التعايشى فعامله معاملة قاسية وفرض عليه رقابة شديدة وظل فى سجنه حتى استطاع أن يفر من الأسر عام ١٨٩٤ . وقد ترك سلاتين باشا وراءه سمعته عاليه كضابط وحاكم إنسانى وإدارى حازم خدم مصر باخلاص ورعا مصالحها ورفع سمعتها فى تلك الأنحاء متجرداً عن أى مطمع شخصى وما يزال إلى اليوم يذكره المؤرخون المصريون بكل خير واحترام . وقد ظل فى خدمة مصر أربع سنوات وزهاء عشرة أعوام فى أسر الدراويش .

ولم يكن المغامرون الأجانب فى السودان لتصدهم عن ارتياده الثوره التى تجتاحه والتبلبل الذى طرأ عليه فوقع فى أسر المهدى بعضهم نذكر منهم فرنسى يسمى (بين) وهو أحد المغامرين الذين هربوا من ثورة الكومين (الشيوعيين) فى فرنسا ونزل

إلى السودان يجوب آفاقه واشتهر اسمه ووقع فى أسر المهدى ورغم أنه كان يعزف على الكمان ليرقص الدراويش فانهم ظلوا يقذفون به من معسكر إلى معسكر حتى أصابته الحمى . ولما سقط مغشيا عليه من فوق ظهر جمله ظنوه قد فارق الحياه فواروه التراب حياً وهو لايزال يلفظ أنفاسه الأخيره . وبلغ مسامع غوردون نبأ هذا الفرنسى فظنه رينان الكاتب الدينى الفرنسى وبلغ به ظنه أن رينان لم يجىء إلى السودان إلا ليجتمع به . ومنهم فرنسى آخر هو الشاعر (رمبود) فى هرر الذى ظل يرقب الحالة فى السودان ويسجلها فى مذكراته وكتب عن الانجليز مانصه « هؤلاء حقاهم الانجليز بسياستهم الخرقاء التى هدمت كل شىء من أساسه وقضوا على كل نظام . فقتلوا التجارة فى جميع هذه الأنحاء وخطر ببالهم أنهم يعملون للاصلاح ففعلوا أسوأ مما فعل الأتراك فى السودان . فخربوا كل شىء فيه . وماغوردون هذا إلا أغبى الأغبياء . وأما ولزلى فهو والحمار سيان وكل ماأتاه الانجليز أو فعلوه إلا غاية فى الحمق وإمعانا فى العبث » هكذا كان شأن هذا الشاعر الذي نسي ترف باريس ولندن وبروكسل

ونسى الحياة الناعمة فيها وعاش قانعا مأخوذاً بسحر تلك البلاد النائيه . ﴿ وغير هؤلاء اشتهر الأب المبشر أهرفالدر الذى استطاع الهرب من أسر التعايشى مع راهبتين ثم تويفلد الذى ظل طول مدة أسره يصنع الذخائر لجيش المهدى ويصلح سلاحه ويقوم بمهمة الطبيب وبقى فى الأسر بعد وفاة المهدى وصمم بناء قبة ضريحه حتى أنقذه الجيش المصرى بعد انتصاره فى موقعة أم درمان ﴾

المهدى يقف على حقيقة الحال فى الخرطوم ويعدل خطاه

وما عتم المهدى أن وقف على ماتضمنته الوثائق التى وصلته غنيمة من الباخره عباس حتى عرف حقيقة الحال ومبلغ حرجها فى الخرطوم فبيت العزم على تضييق الخناق عليها حتى تسقط وفى أواخر أكتوبر ظهر بشخصه فى المعسكر خارج المدينة على رأس جيش جديد . ومن ذلك التاريخ اتخذ الحصار شكلا جديا وصار أكثر إحكاما أما فى داخل المدينه فقد قلت المؤن لدرجة هددت السكان بالمجاعه وحل يوم آخر نوفمبر الذى حدده غوردون كآخر يوم يستطيع فيه الصمود للعدو ومضى ذلك

اليوم ولم يظهر أثر لحملة الإنقاذ الموعوده ولحسن الحظ اكتشفت مخازن للغلال كان قد أخفاها بعض التجار الذين لاضمير لهم .. فاجل ضبط هذه المؤن يوم سقوط المدينه المحتوم غير أن نشاط الجيش المهاجم اخذ يزداد ازديادا ملحوظا فكثرت المناوشات بين الفريقين وتعددت الهجمات على تحصينات المدينه وشواطىء النهر الى درجة نالت المحصورين بضرر عظيم وبدأت مدافع المهدى تصب قنابلها على سراى الحاكم العام وفى العاشر من ديسمبر عادت حالة المدينة تتحرج أشد التحرج بسبب المؤنة والطعام اذ لم يعد منها مايكاد يكفى المدينه اكثر من خمسة عشر يوما وقد جاء فى مذكرات غوردون فى وصف تلك الحاله مانصه « لقد قضت مضجعى مشكلة الطعام حتى أصبحت كالشبح من شدة التفكير ومن إلحاح الاهلين فى طلب الزاد » وبلغت روحه الحلقوم عندما علم بفرار خمسة من جنوده الى معسكر المهدى فزادت وساوسه ومخاوفه ورغم ذلك كان يقدر ان جيش الانقاذ يقترب وانه على مسافة قصيرة من المدينة . علم هذا من الاخبار اليسيره التى وصلت اليه وعندها قرر أن

يرسل احدى بواخره الاربعه الاخيره الى الشمال كى تتصل بالحمله الزاحفة فى قرية (المتمه) وينفذ معها آخر تقرير له عن الحالة فى المدينه ليطلع عليه قائد الحمله . وفعلا سارت الباخرة (بردين) بالجزء الاخير من مذكراته هى وآخر رسائله لاصدقائه . وتصور غوردون خطأ ان السير بيرنج لابد آت مع الحمله فصب عليه جم سخريته فتخيله معلوطا سنام قلوص وهو يهتز ويختلج فى ركابه اختلاجا مضحكا . ومن الغريب ان يقترح على الحكومة البريطانيه بعد ذلك ان تعين كتشنر حاكما عاما على السودان وجاء فى ختام مذكراته مانصه « أذا لم تصل حملة الأنقاذ ـ وأنا لا اطلب اكثر من مائتى جندى ـ فى خلال عشرة أيام فستسقط المدينه عنوة فى يد العدو وانى اقرر هنا انى فعلت اقصى ماستطيع للمحافظة على سمعة بلادى وشرفها ـ الوداع » . وورد فى احدى رسائله لاخته او جستا ماهو أصرح من ذلك قال « لن تكون مهمه النجده انقاذى انا شخصيا فحسب بل وانقاذ جميع الحاميات فى السودان وهو مافشلت فى تحقيقة وانى واثق من ان رجال الحكومة البريطانيه يتميزون غيظا لانى

ثبت مكانى وعصيت اوامرهم فارغمتهم على العمل الايجابى . قد تكون هذه الرساله آخر ما اكتب به اليك لاننا فى آخر مراحل الأزمة وأشدها بسبب تأخر وصول الحمله . ان الأمور بيد الله ولا راد لمشيئته وهو العزيز الجبار » والحقيقة ان تأخر سير الحمله كان يفوق تقديرات غوردون . فقد ظل اللورد ولزلى يعد الحمله بكل عناية ودقه فاختار عشرة آلاف جندى من خيرة الجنود وجهز عددا من المعدات للنقل والمواصلات النهرية تجهيزا فائقاً لأنه كان لايريد أن يتوقف مصير غوردون على قوة ضعيفه اعدت على عجل ولامراء ان العناية التى بذلت فى الاستعداد للحمله كانت عين الصواب الا انه مع الأسف فاته أن يهيئ الظروف التى تؤدى الى نجاحها اذ عندما تم الاستعداد وجد أنه لاسبيل الى تسيير اسطوله النهرى الذى كان يتوقف عليه نجاح الحمله باكملها عند الشلالات لانخفاض ماء النيل . وفى الوقت ذاته وصلت رسالة من غوردون فى اواسط نوفمبر ان الحالة تزداد سوءا داخل المدينه فكان من المنطق ان يسارع الى تسيير الحمله مباشرة عبر الصحراء لأن ارسالها بواسطة النيل اصبح امرا

الدراويش يكشفون عن رأس غوردون لسلاتين باشا

مستحيلا . ولكن ولزلى لم يفعل شيئا لتسيير الحملة برا ومضت عدة اسابيع قبل ان يحصل على عدد من الجمال للنقل وبذلك حل آخر ديسمبر ـ اى بعد اسبوعين من تاريخ آخر رسالة من غوردون ـ عندما استطاع السير هربرت ستوارت ان يصل على رأس قوة مؤلفة من ١١٠٠ جندى الى قرية كورتى أى على ١٧٠ كيلو مترا شمال (المتمه) بعد قتال عنيف بينه وبين قوات المهدى ثم حدثت معركة (ابوطليح) التى استطاع فيها الدراويش اختراق صفوف المربع البريطانى ولكنه ردهم بعد معركة داميه وفى ١٩ يناير حدثت موقعة اخرى قتل فيها السير هربرت وفى ٢١ يناير وصلت القوه الى المتمه بعد أن فقدت ٤٥٠ جنديا ثم عكفت القوه بعد وصولها فى تحصين المعسكر واستكشاف المنطقة وضيعت ثلاثة ايام وفى اليوم ٢٤ منه استطاع القائد الجديد السير شارلس ولسن ان ينتقل الى ظهر الباخر بردين ويسيرها جنوبا قاصدا الخرطوم وفى الليلة التاليه اصطدمت الباخره بصخرة فى النهر وتعطلت بسببها اربعا وعشرين ساعه واستطاع السير شارلس ان يصل الى ضواحى الخرطوم التى اصبحت ظاهرة للعيان فى

اليوم الثامن والعشرين . ولشدما كانت دهشته عندما رأى ان العلم المصرى لايخفق على سراى الحاكم العام ولاحظ ان الخراب والدمار قد شمل المدينه حتى بدت آثاره للعين المجرده فادرك عندئذ ان المدينه قد سقطت فى يد الاعداء . لقد وصلت حملة الانقاذ متأخره بعد ان استولت قوات المهدى عليها بيومين اثنين .

وعلى أنه لم تصلنا أية معلومات أكيده تفصّل حالة المدنيه خلال الأسبوع الأخير من الحصار إلا أننا نستطيع أن ندرك شيئا عنها من مذكرات تركها البوردينى بك ـ أحد التجار ـ وقد وصف حالة المدينه فى المرحلة الأخيره قبيل وقوع الكارثة والمجاعة تفتك بالأهالى فتكا ذريعا والحامية منهوكة القوى وغوردون تعتريه نوبات من اليأس والرجاء وهو فى غمرة تلك الانفعالات لم تفارقه شجاعته النادرة ولم يخنه نشاطه العظيم فقد ظل يعمل دون انقطاع أو ملل يوزع المؤونة على السكان ويجمع الذخائر ويقوى التحصينات ويعقد الاجتماعات الاستشاريه بينه وبين أعيان المدينه ويحث الجنود ويقوى روحهم المعنويه

فشحب لونه وابيض شعره فجأة روى البوردينى بك أنه زاره ذات مساء فى السراى وكانت نوافذها تنبعث منها الأنوار فجعلتها هدفا هينا لمدافع المهدى وبينما هما كذلك إذ اخترقت قنبلة إحدى النوافذ وشق صفيرها أرجاء البناء فأشار البوردينى بك على غوردون أن يسد النوافذ بأكياس من الرمل فما أن سمع هذا منه حتى تملكته سورة الغضب وانفعل انفعالا شديداً ونادى بأعلى صوته وأمر الحرس أن يقتلوه إذا تحركت من مكانى ثم أمر فجىء بمصباح عظيم يسع أربعا وعشرين شمعة وأمرنى أن أعاونه على تثبيتها فى عيونها ففعلت ثم أضاءها جميعا ووضع المصباح على المائدة فى أبرز مكان وظللنا جلوسا مدة من الزمن كأنها أجيال وماعتم أن صاح فى وجهى قائلا عندما خلق الله الخوف قسمه على الناس فلما وصل إلى لم تكن هناك منه بقية لى — إذهب وقل لجميع أهالى الخرطوم أن غوردون لايخشى مخلوقا لأن الله خلقه ولم يضع الخوف فى جوفه »

تتابع الاحداث فى الخرطوم :

وفى الخامس من يناير سقطت أم درمان فى يد الدراويش

وكانت تحتلها قوات الحكومة فأصبحت الخرطوم محاصرة حصارا تاما من جميع جهاتها وأصبح من المستحيل أن تصلها أى مؤونة من الخارج فاجتاحتها المجاعه وأكل أهلها كل أنواع الدواب والنبات التى وصلت إلى أيديهم ووقف جنود الحامية وراء تحصيناتهم كأنهم خشب مسنده من طول ما أصابهم من الجوع والأعياء ومات الناس زرافات كل يوم حتى ملأت جثثهم طرقات المدينه لأن الأحياء كانوا من الضعف بحيث لم يستطيعوا أن يواروهم التراب وفى اليوم العشرين وصلت أنباء انتصار البريطانيين فى معركه أبو قليع فعاود الأمل نفوس الناس وأخذ يداعبهم الرجاء وكان غوردون يؤكد للناس أن الفرج آت قريب وأن الحملة ستصل فى وقت أقرب مما يظنون ولكن مرت الأيام والليالى دون أن يتحقق من وعوده أى وعد وفى الثالث والعشرين انتشرت إشاعة بأن الحملة قريبة جدا وعثر أحد الناس على قطعة من صحيفة ملقاة فى الطريق تقول بأن القوة تبلغ ١٥٠٠٠ مقاتل وعندها انتعش الأمل فى الصدور مرة أخرى ولاشك أن جميع تلك الاشاعات والقصاصات

المطبوعه والرسائل التى وصلت كانت من صنع يد غوردون ليبعث الأمل فى السكان ويحفز الجنود على الثبات دفاعا عن المدينه . وفى اليوم الخامس والعشرين شاهد المحصورون حركة فى معسكر المهدى دلت على أنهم يستعدون للهجوم العام على المدينه . وهنا اجتمع عدد من الشخصيات والأعيان وطلبوا مقابلة غوردون ولكنه رفض أن يقابلهم وسمح للبردينى بك أن يقابله بمفرده فلما دخل عليه وجده جالسا على أريكته فما أن رآه غوردون حتى خلع طربوشه وقذف به إلى الأرض بحالة عصبية شديدة وصاح فى وجهه بحالة لم يألفها منه البردينى بك واندفع يقول من ذا يستطيع أن يفعل أكثر ما فعلت ؟ ! إن الناس لا يصدقوننى ويرمونى بالكذب لأننى قلت لهم ان النجدة آتية ولكنها لم تأت فلا بد أنهم يعتقدون بأننى كذاب منافق والآن لا أستطيع أن أعمل شيئا أكثر مما عملت . عد أدراجك واجمع من المقاتلين من تستطيع وقف بهم الوقفة الأخيرة وراء خطوط الدفاع . أرجوك أن تتركنى الآن لأدخن آخر لفائف التبغ التى بقيت لى »

وعندها أيقن البردينى بك أن غوردون قد استسلم لليأس استسلاما نهائيا ومن ثم ترك الحجرة بعد أن ألقى على شخص غوردون النظرة الأخيرة .

النهاية :

ولما بلغ المهدى أن القوة الانجليزية وصلت إلى المتمة غير خططه وعدل عن الاستيلاء على المدينه بالحصار وفضل أن يسرع فى أخذها عنوة . وحدث أن انخفاض ماء النيل كشف جانبا من السور الذى تهدم منه الجزء المطل على النهر ولم تقم الحامية باصلاح ما تهدم بسبب الأعياء والجوع الذى أصابها وخلف ماء النهر بعد انخفاضه مستنقعا من الطين والأعشاب ظن المدافعون أنه كاف لحماية الناحية الضعيفة من السور ولكن الطين جف تحت وطأة حرارة الشمس ولم يكن وراء خطوط الدفاع إلا جنود بلغ بهم الجهد والضعف غايته فأصبح الدفاع عن المدينة أمرا مستحيلا والحقيقة أنه لم يقو أحد على الدفاع عنها ولم يتكلف جيش المهدى المهاجم إلا الدخول من الثغرة المفتوحة فى السور ومن ثم انتشر فى المدينة واجتاحها اجتياحا والعجيب

أن غوردون كان قد جال بخاطره ماذا يكون موقفه لو أن الدراويش استولوا على المدينه وأجاب عن ذلك فى مذكراته « أنهم لن يأخذونى حيا أبدا » وملأ أقبية السراى بالبارود حتى ينسفها بأكملها فى لحظة واحدة غير أن فكرة أخرى خطرت بباله أنه لو أسر وكبل بالأغلال فى سجن المهدى لكان ذلك أكثر أتساقا مع عقيدته فيكفر عن ذنوبه باحتمال الآلام أسوة بالسيد المسيح . لأن نسف السراى ماهو إلا الانتحار والانتحار ماهو إلا وسوسة من عمل الشيطان وعصيان لقضاء الله ولكنه مابرح فى تردده فأمر أن تعد إحدى البواخر وتظل على استعداد فى النهر حاضرة البخار ليل نهار فقد تتاح له أن يستقلها ويسير بها جنوبا مقتحما معسكر الأعداء إلى أقصى أطراف مديرية خط الاستواء ولكن الدراويش وفروا عليه مؤونة التفكير والتصميم على رأى إذ اقتحموا المدينه فجأة وملأوها صلصلة وعجيجا بعد انهيار الدفاع عنها وكان غوردون إذ ذاك فى قميص نومه واقفا على سطح السراى يرقب الأفق الفسيح بمنظاره .

وفوجىء مفاجأة بجلبة المهاجمين فأسرع إلى غرفته وارتدى

ثيابه وانتضى سيفا بيد وحمل مسدسا بالأخرى قبيل أن يصل إليه أول المهاجمين . وأول من هاجم السراى جمع من الدراويش يقودهم أربعة من أشد جنود المهدى مراسا وقوه يرتدون الجبة المرقعه وتلمع فوق رءوسهم سيوفهم المسلوله . فخرج إليهم غوردون واعترض سبيلهم والتقى معهم وجها لوجه فى أعلى الدرج وتلت ذلك لحظة رهيبه من السكون وهو يحدق فى وجوه مهاجميه وعند ذلك صاح أحدهم واسمه طه الدنجلاوى (يالعون اليوم يومك) وطعنه بحربته طعنة نجلاء ولم يزد غوردون على أن هز كتفيه هزة استخفاف واحتقار ثم انهالت عليه طعنات الحراب وضربات السيوف حتى أجهزوا عليه ﴿ روى سلاتين أنه عندما دخل الدراويش المدينه كانوا يصيحون (للسرايه ! للكنيسه !) واندفعوا إليها وكان بينهم من يريد الانتقام من غوردون لأنه قتل نفرا من قبائلهم أو أنه طردهم يوما ما من ديارهم فلما أجهزوا عليه وحملوا رأسه للمهدى قيل أن هذا أنبهم على قتله لأنه كان يريد أن يجعله يعتنق الإسلام على يديه ويتخذه رهينة يسلمه للانجليز مقابل تسليم عرابى باشا

إليه ظنا منه أن يستخدم الأخير لغزو مصر ولكن سلاتين يرى أنه لو كان المهدى أمر أتباعه بالقبض عليه حياً لما جرؤ أحد على قتله وإنما كان المهدى يتظاهر بهذا الأمر فقط ﴾

وهكذا قضى غوردون نحبه وقابل مصرعه بهدوء وثبات واستسلام . وستظل تفاصيل مقتله سرا من الأسرار فقد رويت تفاصيل متباينة مغايرة لما رويناه . فروى أنه قاتل قتال المستميت حتى نفدت طلقات مسدسه وتراجع مهاجموه حتى أسفل الدرج تحت ضربات سيفه وهو يخوض وسط جثث القتلى ثم حمل عليه الجمع حتى قتلوه «صورة الغلاف» . وهكذا لم يمت ميتة القديسين وإنما مات ميتة المقاتل ﴿ نقل نويفلد هذه الروايه عن قواص الباشا خليل أغا أورفلى وكان شاهد عيان لمقتل غوردون ﴾ .

وفى ضحى ذلك اليوم مر بسلاتين باشا وهو سجين يرسف فى قيود بمعسكر أم درمان جماعة من الدراويش يحمل أحدهم شيئا ملففا فى خرقة بين يديه ثم وقفوا يرمقونه بنظرات ملؤها السخرية ويتهكمون عليه ثم كشفوا عما فى الخرقه فاذا به يرى رأس غوردون أمامه . ومن ثم أرسلت هذه الغنيمة إلى معسكر

المهدى فاذا بنبوءة غوردون تتحقق إذ تقابل الرجلان وجها لوجه ! ولكن بأية حاله . فأمر المهدى بها أن تعلق فى جذع شجرة على قارعة الطريق حيث كانت السابلة تحصب تلك الرأس وظلت أسراب الحدآن تدور حولها ـ تلك القشاعم التى طالما شخص إليها بصره وتوجس منها خيفة أن تنقر عينيه ﴾ قال سلاتين باشا : كنت فى محبسى يوم ٢٥ يناير سنة ١٨٨٥ عندما علمت أن المهدى عبر النهر وخطب فى الجنود وأمرهم بالهجوم على الخرطوم فظللت طول الليل أسترق السمع والنوم يغالبنى . فأفزعنى فجأة دوى عظيم من تركيز إطلاق آلاف من البنادق والمدافع ثم ماعتم الصوت أن انقطع وساد الليل سكون رهيب ، وجاءنى حراسى بنبأ سقوط الخرطوم ولما وضح النهار رأيت ثلاثة من العبيد السود أعرف أسماءهم من قبل وفى يدهم خرقة ملوثة بالدماء ووقفوا بباب خبائى وكشفوا عنها فاذا بى أفاجأ برأس غوردون . فاندفع الدم إلى وجهى وأحسست كأنما توقفت ضربات قلبى ولما تمالكت شعورى حدقت البصر فيه فاذا بعينيه الزرقاوين غير مغمضتين وشعر شاربه ورأسه قد

اشتعلا شيباً . فقال أحدهم ساخراً « أليست هذه رأس عمك الكافر » فأجبت « إنها هى . إنه جندى باسل سقط وهو ثابت فى مكانه . إننى أحسده على ميتته فان آلامه قد انتهت » فقهقه فى سخرية وأجاب « ألا تزال تمتدح هذا الكافر سترى العواقب قريبا » ثم تركنى وسار ليقدم غنيمة النصر للمهدى يتبعه جمع من الناس ﴾

وما أن وصلت أخبار تلك الكارثة إلى انجلترا حتى ارتفعت صيحات الألم من كل جانب وتملك الرأى العام أشد الحنق وأعمق الأسى ووجهت الملكة إلى أخت غوردون خطابا عبرت فيه عن حزنها العميق لمصير أخيها الذى مات ميتة الأبطال والقديسين فلقد أخلص فى خدمة أمته وخدمة ملكته وأبدى من التضحية ما أدهش العالم أجمع وأثار إعجابه وعجبت أن أحدا لم يحرك ساكنا لانقاذه رغم وعود الذين حرضوه على الذهاب بأنهم سينقذوه إذ تخلوا عنه « متجاهلين شفاعتى لديهم ورجائى أن تبلغى تعزيتى الشخصية لاخواتك وأخيك الأكبر ومقدار ألمى الشديد لفظاعة الميتة التى لقيها أخوك الذى مات

ميتة الأبطال وكذلك للوصمة التى نالت سمعة الحكومة البريطانية » ﴿ كانت الملكة فيكتوريا تبغض غلادستون شخصيا وكانت تغدق ودها على منافسه دزرائيلى ولذلك كانت تنتهز كل فرصة للتشهير بسياسته ﴾

فأجابت مس غوردون على رسالة الملكة باهدائها الكتاب المقدس الذى كان يقرأ فيه أخوها فأمرت هذه بوضعه فى بهو قصر وندسور بينما كانت الصحف تشيد باسم غوردون وتلقبه « بشهيد الوطن » وأقيمت صلاة رسمية على روحه فى كنيسة القديس بولس واعتمد البرلمان عشرين الفا من الجنيهات تعويضا لأسرته واكتتب الجمهور بمبلغ كبير لاقامة مؤسسة خيرية لتخليد ذكراه . كما انهال على رأس غلادستون سيل من الشتائم والسباب وصار هدفا لحنق الرأى العام ونقمته فلم يكن فى نظرهم إلا قاتلا مجرما وخائنا تجرد قلبه من كل رحمة أو شفقة وأنه لم يتورع رغم علمه بمقتل غوردون أن يحضر إحدى التمثيليات فى أحد المسارح . ومع كل ماقيل فى حقه فقد صمد هذا الرجل الجبار للعاصفة التى هبت عليه من كل صوب وحدب وكان عليه أن يواجه أزمة

أخرى أشد وأعنف من أزمة غوردون إذ طالبه الرأى العام فى الحاح واعنات أن تواصل القوة البريطانية زحفها حتى تقضى على المهدى وتحتل السودان لتغسل العار الذى لطخ شرف بريطانيا وعبثا حاول دعاة الامبراطورية وطلاب الاستعمار أن يرغموا غلادستون عل الاستجابة إلى مطالبهم وعبثا حاول لورد ولزلى فى مصر أن يوجه نظر الحكومة إلى الخطر المحدق بالقطر المصرى من ترك السودان فريسة للمهدى كما ذهبت محاولات لورد هارنجتون هباء فى تلك السبيل أيضا . بل لم يعر غلادستون تلك الصيحات أى التفات وأصم سمعه عن أن تنفذ اليه وبينما كان الرأى العام تغلى مراجله حدثت أزمة مفاجئة مع روسيا على حدود أفغانستان وظهر من بوادر الأحوال أن الحرب باتت قاب قوسين أو أدنى فانتهز غلادستون تلك الفرصة وأعلن أن انجلترا قد تحتاج لكل جندى فى جيشها بسبب تلك الازمة واتخذ من الازمة سببا فى أن يسحب جيش ولزلى من مصر ويعيده إلى انجلترا وما عتمت الازمة الروسية حتى انفرجت ومن ثم صفا الجو للمهدى وأصبح السيد المطلق على السودان باكمله .

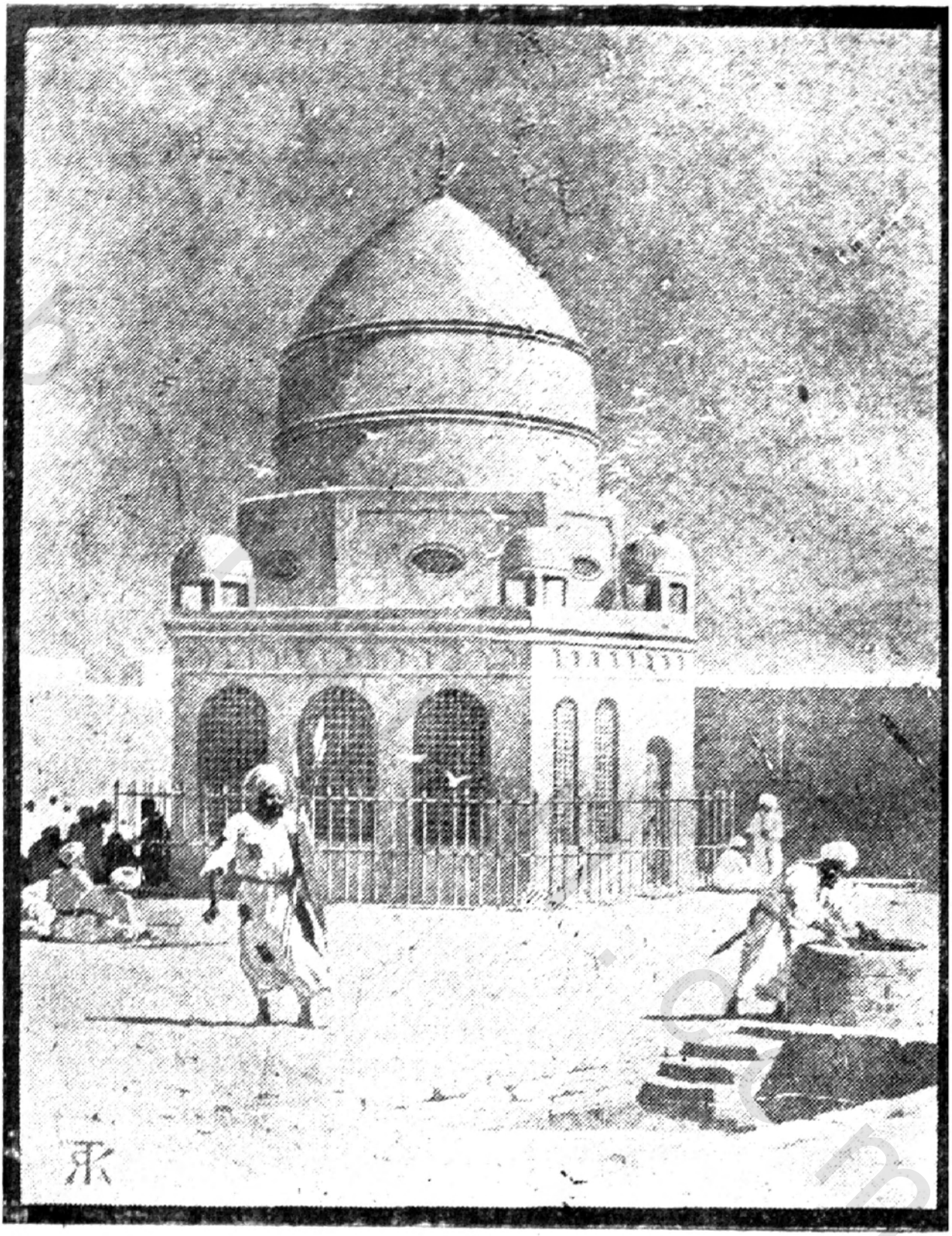

قبة ضريح المهدى صممها نويفلد التاجر النمسوى

بعد عشر سنوات :

ولكن المستقبل فى السودان لم يكن بيد المهدى إذ أنه لم يتمتع بحكمه إلا ستة شهور بعد انسحاب القوات البريطانية فوافاه الاجل المحتوم وأعقبه فى الحكم الخليفه عبد الله التعايشى الذى عزم على فتح مصر تنفيذا لوصية المهدى ﴿ أنفذ الخليفة قائده ود النجومى على رأس أربعة عشر الف مقاتل ولقبه « بأمير الأمراء » فالتقى بالقوات المصرية فى موقعة توشكى ٣ أغسطس سنة ١٨٨٩ فانهزم هزيمة منكرة وتشتت قواته وقتل هو وكثير من أمراء الرايات وبذلك ثأرت مصر لموقعة شيكان والحقيقة أن الثورة المهدية كانت قد استنفدت قوتها وبدأت ترتد موجتها وتضعف منذ معركة توشكى ﴾

وكان على الخليفه أن يواجه كتشنر ومدافع المكسيم البعيدة المرمى وفى حكمه قضى على دولة الدراويش ومحيت أثارها من الوجود فى معركة أم درمان الحاسمة وأقيمت لذلك صلاة رسمية على روح غوردون فى السراى التى طالما أصدر الأوامر منها وأخيرا ثم للأمة الانجليزية الأخذ بثأره وغسلت شرفها

(ود النجومى) أكبر قواد جيش المهدى

المكلوم وارتاح أخيرا الضمير البريطانى بعد مذبحة أم درمان التى قتل فيها عشرون الفا من الدراويش وأهم من ذلك كله ضم مساحات واسعة زادت فى رقعة الأمبراطورية . وخطا السير افلن بيرنج خطوة اكيدة فى سبيل الفوز بلقب لورد .

وهكذا انتهت حياة غوردون ذلك البطل المخبول قضاها فى نضال مع نفسه وتمرد على الناس وهى قصة أغرب من نسج الخيال بمغامراتها المدهشة ومناقضاتها العجيبه .

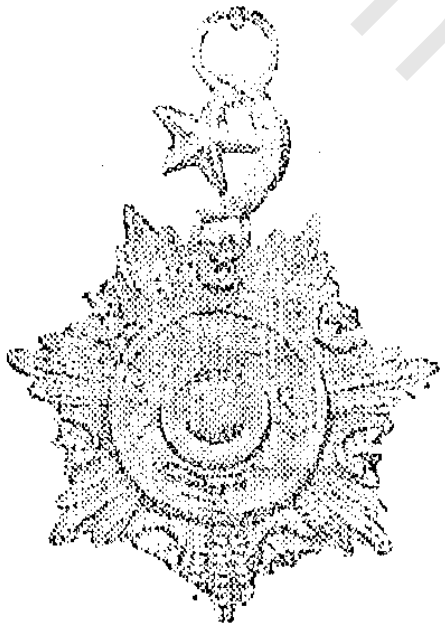

المدلاه التذكاريه الذهبيه
لحصار الخرطوم

ملاحظات — ص٥٢ سطر ٣ — سنه . تصحيحها : ستون يوما
(تعليق المترجم بين قوسين)

obeikandl.com

غوردون باشا فى الزى المصرى الرسمى